امتلك
قلبًا سليمًا

إبراهيم إسماعيل غانم

أبو عبد الرحمن

الطبعة الأولى

تشرين أول / أكتوبر 2024

من درر الكلام..

قال اللهُ تعالى على لسانِ سيدنا إبراهيم ﷺ: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩ ﴾ (سورة الشعراء).

- يقول أَنَس رضي الله عنه: "كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: (**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**)، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، آمَنَّا بِكَ، وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: (**نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**)" (رواه الترمذي).
- قيل: "الإنسان لَوْ دَلَّهُ شخصٌ على طريقِ بَلَدٍ مِنَ البِلَادِ الَّتِي يَقْصِدُهَا لَرَأَى لَهُ معروفًا عَلَيْه، فكيف بِالنَّبِي ﷺ الَّذِي دَلَّكَ على الطريقِ المُوصِلِ إلى الجنة؟".

ما هو القلب السليم؟

- سُئل محمد بن سيرين رحمه الله: ما القلب السليم؟ فقال: "الناصح لله عز وجل في خلقه".
- قال القرطبي رحمه الله: "أي الخالص من الأوصاف الذميمة، والمتصف بالأوصاف الجميلة".
- قال ابن تيمية رحمه الله: "القلب السليم المحمود هو الذي يريد الخير لا الشرَّ".
- قال ابن القيم رحمه الله: " الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة".
- قال ابن رجب رحمه الله: "القلب السليم هو السالم من الآفات والمكروهات كلها".
- قال جمال الدين القاسمي رحمه الله: "قلب خالص من الشوائب، باقٍ على الفطرة، سليم عن النقائص والآفات".
- قيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله: يا أبا إسحاق، لِمَ حُجِبَت القلوب عن الله؟ قال: لأنها أحبَّت ما أبغض الله، أحبَّت الدنيا ومالَتْ إلى دار الغرور واللهو واللعب، وتركت العمل لدارٍ فيها حياة الأبد في نعيم لا يزول ولا ينفد، خالدًا مُخلَّدًا في ملك سرمد، لا نفاد له ولا انقطاع.

اللهم إنا نبرأ من الثقة إلا بك..

ومن الأمل إلا فيك، ومن التسليم إلا لك..

ومن التفويض إلا عليك ومن الطلب إلا منك..

ومن الرضا إلا عنك، ومن الذل إلا في طاعتك..

ومن الصبر إلا على بابك..

ومن الرهبة إلا لجلالك الكريم..

اللهم تتابع برُّك، واتصل خيرك..

وعمت فواضلك، وتمت نوافلك..

وبر قسمك، وصدق وعدك، وحق على أعدائك وعيدك..

ولم تبقى حاجة لنا إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين..

فلك الحمد حتى ترضى..

ولك الحمد بعد الرضا..

ولك الحمد حمدا سرمدياً أبدا..

مقدمة

الحمد لله ذي الجلال والإكرام، حي لا يموت قيوم لا ينام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا وحبيبنا محمدًا عبده ورسوله، الداعي إلى دار السلام صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، يقول العامة عبارة "الدين المعاملة"، وهي ليست حديثًا عن رسول الله ﷺ، لكن معناها صحيح، فالدِّين ينقسم إلى: عقيدة، وعبادات، ومعاملات، وآداب وأخلاق، فهي رُبع الدين، بل نصفه؛ لأن الأخلاق هي أساس المعاملات.

وللأسف الشديد، فإن المعاملات المالية والاجتماعية من أكبر الأسباب للخلافات والشِّجارات والتقاطع الذي يحصل بين المسلمين، سواء على مستوى الفرد أو العائلة أو المجتمع، وهذا واضح للعيان لا مِراء فيه، لذا جاء الإسلام لإصلاح القلوب والعقول والجوارح، ودفعها إلى السير في الطريق المستقيم المحفوف بالعدل الذي رسمه النبي ﷺ بأمر من الله تعالى، وبدأ بتطبيقه عمليًا في حياته، وهو القُدوة والأسوة الحسنة لكل المسلمين، لذا يجب أن تكون معاملاتك مستقيمة كما أراد الله تعالى؛ طاعة له واقتداء بالحبيب محمد ﷺ، فقد كان هدف بعثته ومقصدها واضحاً جلياً في بناء الفرد الصالح والأسرة والأمة الصالحة، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء:107).

في هذا الكتاب جمعت 60 حديثًا نبويًا، فليس الهدف إحصاء الأحاديث المتعلقة بالمعاملات، فهي كثيرة جدًا، ومنثورة في مؤلفات كثيرة وضخمة[1]، لكني أهدف إلى استخراج كنوز وعظية من هذه الأحاديث، تؤدي -بإذن الله- إلى زرع حُب الله تعالى في القلوبِ من خلال هذه الأقوال والأفعال النبوية الشريفة، نجلي بها القلوب، ونُطهر

[1] أُلِّفَت عشرات الكتب في أحاديث الأحكام بشكل عام، مثل: "منتقى الأخبار في الأحكام" لابن تيمية الجد، و"بلوغ المرام" للحافظ ابن حجر العسقلاني، و"عُمدة الأحكام" للحافظ عبد الغني المقدسي، ومنهم من خص أحاديث المعاملات المالية، مثل كتاب "الأموال" للقاسم بن سلام.

أما حديثًا؛ كتاب: "مجموع الأدلة النقلية والإجماعات المروية في المعاملات المالية"، د. عبد العزيز بن سعد الدغيثر. وكتاب: "الهدي النبوي في أحاديث المعاملات"، د. يوسف عظيم الصديقي. كتاب: "موسوعة أحاديث المعاملات المالية"، د. همام سعيد وابنه، ويحتوي على 2064 حديثًا... وغيرها.

النفوس من كل ما يُخالف أخلاق ديننا، كدلالة على حُبِّنا لله خالقنا، فإذا أحبَّ العبدُ ربَّه؛ أطاعه ولا بُد، وإذا أحبه فإن قلبه ينبض بكل ما يُحب ربُّهُ، وعقله لا يُفكر إلا بما يُحب ربُّه، وجوارحه لا تتحرك إلا بما يُحب ربُّها، وهذا هو الهدف الحقيقي من وجود الإنسان في هذه الدنيا: أن يعمر الأرض بالطريقة التي أرادها الله، وهذا يتطلب أن يكون المسلم على قدرٍ عالٍ من الأخلاق الحسنة في تعاملاته مع الآخرين، فيكون متسامحاً رحيماً، يتجنَّب المشاحّة، ولا يُضيّق ما وسَّعه الله، ويمهل المُعْسر، ويتجاوز عن المسيء، كي يخرج من الدنيا بقلب سليم..

هذا؛ وقد تجنبتُ في هذا الكتاب الهوامش قدر الإمكان، كما أني عزوتُ الآيات إلى مصادرها، وعزوتُ الأحاديث إلى واحد ممن أخرجها، مثل: (مُسلم) (البخاري) (أبو داود) ونحوها، واعلم أن كُل أحاديث الكتاب صحيحة أو حسنة؛ إلا إذا بينتُه أو صدَّرته بصيغة تمريض، مثل: رُوي أو يُروى، وفي بعض الأحيان أكتب الحديث بتصرُّف في القصة بحيث لا تخل في المعنى، أو بكلام النبي ﷺ.

كما أنني قصدتُ أن تكون لغته مُبسَّطة جدًا، لدرجة قد تصل إلى بعض الكلمات العامية؛ لأن الهدف منه ليس زخرفة الأحرف والكلمات، والمحسنات البديعية، وإنما دخول هذه الكلمات إلى القلوب، وتأثيرها على النفوس، لعل الله تعالى يجعل فيها الأثر، فتظهر على الجوارح، تطبيقًا وطاعة لله تعالى ولرسوله الكريم.

كما أني أشكر كل من ساعدني في التصحيح والتدقيق.. شكرًا لكم جميعًا..

أسأل الله تعالى التوفيق والسداد، وأن يجعل في هذا الكتاب الأثر النافع، وصلاح القلوب، لأجل مرضاة علام الغيوب.. والحمد لله أولا وآخرًا..

❖❖❖

تمهيد.

إذا ذُكر مُصطلح (المعاملات) يذهب الذهن مباشرة إلى البيع والشراء والتجارة، والحقيقة أنها لا تقتصر على البيع والشراء، بل تشمل كل حياة الإنسان وعلاقاته مع أهله وأخوته وجيرانه وعلاقة العامل بصاحب العمل، وعلاقة صاحب العمل مع عُمَّاله أو موظفيه، وتشمل حتى العلاقة بين الآباء والأبناء، فيجب على المسلم -وأي إنسان- أن يُهَذِّب معاملاته مع الآخرين ويصبغها بصبغة الأخلاق، وما إدراج قول: (الدين المعاملة) ضمن الأمثال العامة إلا للدلالة على أهمية الأخلاق في دِين المسلم، والنصوص النبوية في ذلك لا تكاد تُحصى، مثل قوله ﷺ: «**إنما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ**» أو قال: «**صالحَ الأخلاقِ**» (أخرجه أحمد)، وفي صحيح البخاري: «**إنَّ مِن أخْيَرِكُمْ أحْسَنَكُمْ خُلُقًا**»، وفي المُسند: «**إنَّ مِن أحبِّكم إليَّ أحسنَكُم خُلُقًا**»، فالمسلمُ بأخلاقه يُمكن أن يكون داعيةً للإسلام دون أن يتكلم بكلمة، فالناس أسرع تأثراً بالأفعال منهم بالأقوال.. فما أجمل أن يكون المسلم مُؤثِّرًا في القلوب بأخلاقه الرفيعة ومعاملته الحسنة ولسانه الصادق وطيبته وتواضعه وصدقه مع الناس.

والإنسان بطبيعته لا يمكن أن يعيش وحده، فلا بدّ من الاختلاط مع الناس، وإذا وَفَّقَ اللهُ عز وجل العبدَ كانت مُخالطته ومُعاشرته ومُعاملته مع الناس وفق شرع الله، ورجاء ثواب الله، ولا يُفَكّر مجرد تفكير في طلب الجزاء منهم، ولا يمنُّ عليهم بذلك، فإنه قد عَلِمَ أن كل ما عنده هو من الله، فعليه أن يشكر ربَّه، أن يَسَّرَهُ لليُسرى من الأقوال والأفعال، وللمعاملة الحسنة الصالحة التي تُرضيه عنه.

والحقيقة؛ أن أسمى غايات المسلم وأنبل المقاصد عنده أن يُوفَّق إلى فعل الخير، حيث يُطيع ربَّه، ويتشبه بالملائكة، ويتخلق بأخلاق الأنبياء والصديقين، لذلك؛ أوصانا ربُّنا بالمسابقة والمسارعة إلى ذلك، مع كُل الناس، بغض النظر عن معتقداتهم وأعراقهم، يقول سبحانه: ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (البقرة: 148)، وقد جعل الاستمرار على فعل الخيرات طريقًا للفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿**وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (الحج: 77).

وبما أنَّ غايات الناس مختلفة، وأهدافهم شتى، وأفكارهم متنوعة، وبما أن الدنيا دار لهو ولعب وفتن، وهي حُلوة خضرة لكنها خادعة، تأسر القلوب بشهواتها وزخارفها، فإن الإنسان يحتاج إلى من يُوجهه إلى الحق وإلى طريق الآخرة الباقية، حتى لا تسحبه حبال الدُّنيا في مُستنقعات الغواية والشهوات والشُّبهات، وليس أعظم قُدوة من رسول الله ﷺ، وقد صحَّ في الحديث: «**من كانتِ الآخرةُ هَمَّهُ جعلَ اللهُ غناهُ في قلبِهِ وجمعَ لَه شملَهُ وأتتهُ الدُّنيا وَهيَ راغمةٌ، ومن كانتِ الدُّنيا همَّهُ جعلَ اللهُ فقرَهُ بينَ عينيهِ وفرَّقَ عليهِ شملَهُ، ولم يأتِهِ منَ الدُّنيا إلا ما قُدِّرَ لَهُ**» (الترمذي).

وقد كانت حياة النبي ﷺ كلها مواقف للاقتداء به، فقد حرصَ ﷺ أن يكون عادلاً في كل أحواله: مع أزواجه، ومع أولاده، ومع جيرانه، في أعماله، فقد عمل ﷺ تاجرًا قبل البعثة مع عمه أبي طالب؛ ومع خديجة رضي الله عنها، وسافر مُتاجرًا إلى الشام، وكان أيضًا يُتاجر في الأسواق كمِجَنَّة عكاظ، لكنه تميَّز بعدله وصدقه وأمانته وحكمته، وكلامه يهدف إلى توجيهنا وهدايتنا في حياتنا، فقوله -على سبيل المثال-: «**رَحِمَ اللهُ رَجُلا سَمْحًا إذا باعَ، وإذا اشْتَرَى، وإذا اقْتَضَى**» يُعمم خُلق السماحة على كل المعاملات، سواء كانت مالية أو اجتماعية أو داخلية أو خارجية، لأجل أن يُصبح المجتمع كُله مصبوغٌ بهذا الخُلُق الجميل، وينأى الإنسان المُسلم بقلبه الطاهر العفيف النظيف السليم عن كل ما يشين من الصّفات والأخلاق، ويتمسك بكل ما يرفع شأنه عند الله تعالى منها، كما قال أحدهم:

فمن هجر اللذات نال المُنى ومَـن *** أكبَّ على اللذاتِ عَـضَّ على اليدِ
فلا تشتغل إلا بما يُكسب العُلى *** ولا ترضَ للنفس النبيلة بالرَّدِي

فلم لا نقتدي به طاعة لله؛ لنكون متميزين في كل حياتنا؟

لهذا الهدف كانت هذه الرسالة، والحمد لله أولاً وآخرًا..

❖❖❖

الحديث الأول: أصلح نيتك تُقبَل أعمالُك..

1 يقول النبي ﷺ: «**إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّما لِكلِّ امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ فَهجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ ومن كانت هجرتُهُ إلى دنيا يصيبُها أو امرأةٍ ينْكحُها فَهجرتُهُ إلى ما هاجرَ إليْهِ**» (متفق عليه).

هذا الحديث أصل كل الأعمال التي يقوم بها المسلم، فـ «**إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ**» لأنك إذا نويت الخير أكرمَكَ اللهُ بالخير في المُقابل، وشتان ما بين خيرك وخيره جل وعلا! لهذا قال ﷺ بعدها: «**وإنَّما لِكلِّ امرئٍ**» جزاء وثواب وأجر «**ما نوى**»، فإذا تَعَامَلتَ أي معاملة مع أي إنسان، سواء كانَ قريبًا أو بعيدًا؛ فاجعل معاملتك معه طيبة لأجل الله، حتى يجزيك الله ثوابها بقدر نيتك، ولا يخفى عليك -أيها الغالي- كم هو كرم الله تعالى، الذي يجزي الجزاء العظيم على العمل القليل.

إذا كانت نيتك لله؛ ماذا يحصل؟ «**فمن كانت هجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ فَهجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ**» يعني: أن الله يتكفل لك بالأجر الجزيل على هذه النية، وإني أنصحكَ لوجه الله: لا تجعل نيتك من معاملاتك مع الناس لأجل نفسك، أو إرضاء الآخرين، أو طمعًا في مكاسب دنيوية، فتصبح مثل صاحب هذا المثال الذي ضربه النبي ﷺ في الحديث: «**ومن كانت هجرتُهُ إلى دنيا يصيبُها أو امرأةٍ ينْكحُها**» ماذا يحصل لمن يجعل نيته دنيوية؟ الجواب «**فَهجرتُهُ إلى ما هاجرَ إليْهِ**» يعني يوكلك الله إلى من -أو ما- نويت، وقد جاء في الخبر: "إن العبدَ تُنْشَر له الحسنات والأعمال الصالحة، فيقول الله له: اذهب فَخُذ أجرَكَ ممن راءَيْتَ له".. اذهب إلى جماعتك الذين كنت تريد منهم الفخر والمدح.. اذهب وخذ الأجر من مسؤولك أو مديرك، فإنك لم تُرِدْ بهذا العمل وجهُ الله جل جلاله، فليس لك عنده أجر.

تنبيه مهم: هناك رواية للحديث: «**الأعْمَالُ بالنِّيَّةِ**» يعني: نية واحدة صادقة لوجه الله أفضل من مليون نية تقصد بها غيره، فكل عمل لا يَقصِدُ به العبدُ وجهَ اللهِ فهو مردود عليه، مهما كان كبيرًا.

❖❖❖

2 يقول النبي ﷺ: «**رَحِمَ اللهُ عبدًا سَمْحًا إذا باعَ، سَمْحًا إذا اشْتَرى، سَمْحًا إذا قَضَى، سَمْحًا إذا اقْتَضَى**» (أخرجه البخاري).

أنا تعمدتُ أن يكون هذا الحديث الثاني؛ لأن مدار كل المعاملات عليه، ويجب على كل مسلم أن يسعى لكي ينال هذا الدعاء النبوي العظيم، كيف لا وهو ﷺ مُستجاب الدعوة؟ كيف لا وهو ﷺ لا ينطق عن الهوى؟

فمن منا لا يُحب أن ينال رحمة الله تعالى؟! كلنا يرجو ويتمنى ذلك، وفي هذا الحديث يدُلّنا حبيبنا ﷺ على طريقة لنيل رحمة الله، وهي "السَّماحة" في المعاملات، والسماحة صفة عجيبة لا يُتقنها إلا من وَضَع رضوان الله نُصب عينيه.. لا يُتقنها إلا من كان قلبُه عامرًا بالإيمان، وبحب رب العزة تبارك وتعالى.

و"السماحة" باختصار: هي السهولة والبساطة، وعدم تكبير وتضخيم الأحداث أو الأقوال، فيكون الإنسانُ "سَمْحًا" يعني سهلاً مُيَسِّرًا، يتنازل عن حظ نفسه أو جزء من حقه، ليحلّ مشكلة هو طرف فيها، أو ليطوي صفحة خصام طال الحديث فيها، أو ليتألف قلبًا، أو لِيَستَطيب نفس أخيه ويتحبب إليه، فلا يتعدى على حق أخيه، ولا يُلحِف (يتشدد) في المطالبة بحقوقه، فذلك هو الرجل السَّمْح ، وتلك هي السَّماحة.

يا الله كم لهذه الصفة من تأثير في المجتمع لو أنها تتحقق.. أَخْذُ الأمر بكل بساطة وسهولة، اسمعوا لهذه القصة العجيبة: عثمان رضي الله عنه اشترى من رجلٍ أرضًا، ولم يأتِ صاحب الأرض لقبض الثمن، وَتَبَيَّن فيما بعد أن سبب تأخره شعوره بأن الأرض تساوي أكثر، وكان الناس يلومونه: كيف تبيعها بهذا الثمن؟ فأتاه عثمان رضي الله عنه وقال: "اختر بين أرضِك ومالِك".. إما أن تأخذ المال أو تَرُدّ الأرض.. هكذا بكل بساطة، لا صياح ولا مشاجرات ولا "أنا اشتريت وانتهى الأمر"، ثم ذَكَّرَهُ عثمان بقوله ﷺ: «**أدخل اللهُ عَزَّ وَجَلّ الجنة رجلاً، كان سهلاً مشتريًا وبائعًا ، وقاضيًا ومُقتَضِيًا**» (رواه أحمد).

السَّماحة ترفع من قدرك عند الله، ثم عند الناس. هل تُريد مثالاً؟ هذا السائب بن عبد الله رضي الله عنه كان شريكًا للنبي ﷺ في التجارة قبل البعثة، وأسلم يوم فتح مكة،

فجيء به إلى النبي ﷺ، فمدحه الصحابةُ لصدقه وأمانته في التجارة، فقال ﷺ: «**أنا أعلمُكُم به، لقد كان شريكي في الجاهلية**»، فقال: "صدقتَ بأبي أنت وأمي، كنتُ شريكك، فنعم الشريك: لا تُداري ولا تُماري".. يعني: كنتَ أنتَ يا رسول الله شريكًا موافقًا سهلاً غير مخاصمٍ ولا شديدٍ ولا صعب في التعامل، فكانت سماحته ﷺ من أسباب محبة السائبِ له، ودخوله في الإسلام، فأعطاه النبي ﷺ تعليمات رائعة -مع أنه حديث عهد بإسلام- فقال: «**يا سائب، انظر الأخلاق التي كنت تصنعها في الجاهلية فاصنعها في الإسلام...**» (رواه ابن ماجة)، فالسماحةُ سببٌ من أسباب النجاة من النار لمن تخلَّق بها، قال ﷺ: «**حَرُمَ على النار كل هيِّن ليِّن سهل، قريب من الناس**» (رواه أحمد).

فمن استطاع أن ينال رحمة الله بأي عمل؛ فلا يتردد؛ لأنها طَرِيقَهُ إلى الجنة.

❖❖❖

3

سَمِعَ رسولُ الله ﷺ صوتَ خصومٍ بالباب عاليةً أصواتُهما، وإذا أحدُهما يَسْتَوْضِعُ الآخرَ، ويَسْتَرْفِقُه في شيء، وهو يقول: والله لا أَفْعَلُ. فخرج ﷺ فقال: «**أين المُتَأَلِّي على الله لا يفعلُ المعروفَ؟**» فقال: أنا يا رسول الله، وله أَيُّ ذلك أَحَبَّ. (متفق عليه).

الإنسانُ يبقى إنسانًا، قد تعتريه بعض التَّصَرُّفات غير الجيدة أحيانًا، لكن الدِّين يُهذب أعماله وتصرفاته وأخلاقه، ويصبغها بحب الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، فيخرج من الابتلاء كالذهب الأحمر، إيمانه قوي، لا تُزعزعه شبهة ولا تغلبه شهوة.

هل قُلتَ الابتلاء؟! نعم، كل حياتنا ابتلاءات.. انظروا إلى هذا الصحابي، ابتلاه الله بمعاملة مع أخيه؛ لينظر أيُحسِن العمل أم لا: ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ (هود:7): نحن لا نعرف ما هي المعاملة، قد يكون باعه بضاعة، أو أقرضه مالاً، أو استأجر منه بيتًا... المهم أن له دَينٌ عند أخيه المسلم، لكن أخيه هذا لا يملك، وهو يطلب منه برفق أن يُنظِرَهُ أو يؤجِّل له موعد السَّداد، أو يُسامحه في بعض الدَّين ويُخفف عنه، فرفض ذلك، واحتدت المسألة حتى قال صاحب المال: "والله لا أَفْعَلُ".. حَلَفَ ألا يؤجل له الموعد.. ولما سمعه النبي ﷺ خرج غاضبًا وقال: «**أين المُتَأَلِّي على الله لا يفعلُ المعروفَ؟**» من هذا الذي يحلف بالله أن لا يفعل الخير للناس؟ من هذا الذي يستخدم اليمين كي يمتنع عن فعل الخير والبِرّ ونفع المسلمين؟

والامتناع عن فعل الخير في نظرهم جريمة؛ لأن الله أمر بالمسابقة والمسارعة إليها، فقال: ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾، ومساعدة الناس ليست من نوافل الأعمال أو المندوبات، بل أمرٌ وتكليف من الله لكل المسلمين، وقد جعلها الله طريقًا للفلاح في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿**وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (الحج:77).. فهل يليق بالمُسلم صاحب القلب السليم الصادق أن يترك فعل الخير أو نفع الناس بحُجج واهية؟!

لما سَمِعَ ذلك الصحابي قول النبي ﷺ انتفضَ وتغير لونُه، وعاد إليه وعيُه، واستفاق عقلُه من ثورة الغضب: كيف لي أن أحلف على أمر يُغضب رسول الله؟ كيف لي أن

أمتنع عن فعل خير أو نفع أو مُساعدة لإخواني المسلمين؟ فقال معترفًا ومُعتذرًا: "أنا يا رسول الله قُلتُ ذلك، وله أَيُّ ذلك أَحَبَّ".. يا الله !! انظروا إلى المسارعة في الخيرات.. مباشرة وعلى الفور وَضعَ الحل ليكون مُبادرًا إلى الخيرات: "وله أَيُّ ذلك أَحَبَّ"، يعني: لأخي ما يُريد يا رسول الله.. ما دام الله سيُسامحني: فله ما يُريد.. ما دُمتَ يا رسول الله سترضى عني: فله ما يُريد.. إن كان هذا سيجعلني من المفلحين في الدنيا والآخرة: فله ما يُريد.. إن شاء أن أخفف عنه من الدَّين خففت.. وإن شاء تأخير موعد السداد أخَّرته له.. المهم أن لا يكون اللهُ غاضبًا عليَّ.. ورسول الله ﷺ مرتاح ومبسوط مني..

سؤال:

طيب؛ "أنا حلفتُ من زمان"، كيف سأرضي الله تعالى، وأُفرِحُ رسول الله؟ بسيطة، حبيبك ﷺ حَلَّ لك المسألة، وقال: «**إذا حلفتَ على يمينٍ فرأيتَ خيرًا منها؛ فأْتِ الَّذي هو خيرٌ وكفِّرْ عن يمينِك**» (متفق عليه).. هكذا، بكل بساطة..

❖❖❖

4 يقول النبي ﷺ: «**الحَلِفُ مَنفَقَةٌ للسِّلعة، مَمحَقَةٌ للكسبِ**» (متفق عليه)، وفي رواية: «**اليمينُ الكاذبةُ مُنَفِّقَةٌ للسلعةِ مُمحِقةٌ للبركةِ**».

على ذكر سيرة حلف اليمين في الحديث السابق؛ هناك من يستخدم الأيمان الكاذبة لزيادة الرِّبح، أو لإقناع الزبائن بجودة بضاعتهم لتشجيعهم على الشراء، أو أنه اشتراها بكذا وربحه فيها قليل ليُصدّق الزبون فيشتري، ويُشجع غيره على الشراء، فيربح البائع ربحًا كثيرًا، ويُنَفِّق كل البضاعة، ثم يشتري غيرها ويحلف مرة أخرى فَيُنَفِّق بضاعته.

من يفعل هذا يرى في الظاهر أن مالَهُ أصبح كثيرًا، وربحه في ازدياد، لكن الحقيقة أنه (يمحق) بركة مالِه، لاحظوا اللفظ (مُمحِقَة) أي: سيأتي يومٌ ويخسر كل ما ربحه من مال، ولا يبقى له من المال الذي كسبه شيءٌ، فيُسلِّط اللهُ تعالَى عليها أحد جنوده فتتلف، إمَّا سَرِقةً، أو حَرقًا، أو غَرَقًا، أو نَهبًا، أو أسبابًا أُخرى، فتأتي النتيجة عكسية، ولا يناله إلا التعب والكدّ والجُهد، وهو عِقابٌ مِن اللهِ تعالَى، أتدرون لماذا؟ لأنه أشهَدَ اللهَ على أمر كاذب.. وَضَعَ اللهَ شاهدًا على البيع أو الشراء وهو كاذب.. وهنا تكمن الخُطورة..

وقد يُزين البائعُ السِّلعة ويُظهِر أنها جيدة وهي ليست كذلك، أو يكتم عيبها، ويقول: "أنا لا أحلف.. وهكذا التجارة والربح".. لا يا عزيزي! ليست هذه طريق التجارة التي تُرضي رب العزة، فهذا العمل أيضًا ماحقٌ للبركة، ولو بدون حلف، يقول حبيبنا ﷺ: «**البَيِّعانِ بالخِيارِ ما لَمْ يَتَفَرَّقا، فإنْ صَدَقا وبَيَّنا بُورِكَ لهما في بَيْعِهِما، وإنْ كَذَبا وكَتَما مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِما**» (متفق عليه)، فإن كُنتَ صادقًا مع زبائنك أو إخوانك أو جيرانك وبيَّنت الحق لهم، فأنت صادق مع الله، وسيُجازيك بأن يجعل البركة تحلُّ في مالِكَ وبضاعتِكَ وكسبِكَ وربحِكَ، فيزيده ويُنميه ويُثبِت فيه الخير والنفع..

ولا تغتر -أيها الغالي- بكثرة مالِكَ أو ربحِك، فكم من إنسان عنده مال قليل لكنَّ الله نفعه به ونفع مَن وراءَهُ، وكم من إنسان عنده أموال ولكنه لم ينتفع بها، فصار يعيش عيشَ الفقراء وهو غني؛ لأن بركتها قد مُحِقَت، والعياذ بالله.

❖ ❖ ❖

5

يقول النبي ﷺ: «**لا يَبِع الرَّجلُ على بيعِ أخيه، ولا يَخطبُ على خطبة أخيهِ، إلا أن يَأذَنَ لَهُ**»، وقال: «**لا يَسِم المسلمُ على سَومِ أخيه**»، وقال: «**لا يبيع الرجل على بيع أخيه حتى يبتاعَ أو يَذَر**» (متفق عليه).

هذه الأحاديث التي تشمل المعاملات المالية والاجتماعية أيضًا، كلها تشترك في كلمة واحدة، هي: (أخيه)، وهنا نجد قانونًا إسلاميًا عظيمًا، تفرَّد به دين الإسلام، هو (قانون الأخوة في الله) الذي يَنُصُّ على: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾، فماذا يعني هذا القانون؟

هذا القانون يعني أن الله تعالى يأمركَ أن تُعامل كل مُسلم على أنه أخوكَ، ولاحظوا كلمة (إنَّما) وهي "أداة حصر"، أي أنّ الله عز وجل يخبرنا بأنه: لا أخوّة حقيقية إلا أخوّة الإيمان والإسلام، وهي أقوى من علاقة النَّسَب، وتضعف بضعف الإيمان، وتَقوى بقوّته!.. ويقوى الإيمان بقوّتها، ويضعف بضعفها! فإذا أردت أن تختبر قوة إيمانك فاختبرها في علاقتك مع إخوانك المسلمين.. والسؤال الآن: كيف اختبر إيماني؟

الجواب: اعرض أفعالَك على قول حبيبك ﷺ: «**والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيدِهِ لا يُؤْمِنُ أحدُكُم حتى يُحِبَّ لأَخِيهِ ما يُحِبُّ لنفسِهِ من الخيرِ**» (متفق عليه)، وفي رواية: «**لا يبلغُ العبدُ حقيقةَ الإيمانِ حتَّى يحبَّ للنَّاسِ ما يحبُّ لنفسِهِ**» (رواه أحمد). فمن ترسَّخَ هذا المفهوم في قلبه؛ لا يُمكن أن يخدع إنسانًا مسلمًا، أو يُحاول أن يضُرَّه، أو يؤذيه في نفسه أو ماله أو عِرضه، فإذا عرفتَ أن أخاك ينوي شراء شيءٍ فلا تُعَطِّل عليه، وإذا سمعتَ أنه يُريد خطبة فتاة فلا تُعَطِّل عليه، وإذا أخبركَ أنه سيفتح مشروعًا ما فلا تسبقه وتفتح مثله لتُعَطّل عليه، وإذا شاوركَ في أمر "ورشة بناء" -مثلاً- فلا تُرسل ابنكَ أو زوج ابنتك ليُخُذها فتُعَطّل عليه؛ لأن إيمانكَ يمنعك من إحراج أو ضرر أو إيذاء الآخرين..

هل تعرف "يزيد بن أسد"؟ هذا صحابي، سأله النبي ﷺ في يوم من الأيام: «**أَتُحِبُّ الْجَنَّةَ؟**» ومن منا لا يُحبها؟! فكان جوابُ يزيد على الفور: نعم، فأرشده الصادق المصدوق ﷺ وقال له: «**فَأَحِبَّ لأَخِيكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ**» (رواه أحمد).. فهلا اقتدينا؟!

❖❖❖

6 يقول ﷺ: «**ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلاَ يُزَكِّيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ**» قيل: خَابُوا وَخَسِرُوَا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**المُسْبِلُ، وَالمَنَّانُ، وَالمُنْفِقُ سِلعَتَهُ بِالحَلِفِ الكَاذِبِ**» (مسلم).

تحدثنا في الحديث رقم (4) عن المنفق سلعته بالحلف الكاذب، وسأقف قليلاً مع «المَنَّان» الذي نُسميه بالعامية: (يُحمله جميله)، وهي صفة سيئة جدًا في المعاملات بين الناس، والدليل: العقوبة التي وضعها النبي ﷺ حيث يحرمهم الله من الحديث معه، ومن النظر إليهم، ولا يُزكيهم يوم القيامة، فهل ترون عقوبة أشد من أن يحرمك الله رؤيته؟

والذي دعاني إلى إدراج المنان ضمن هذه الأحاديث قصة رأيتُها، لرجل أعطى أخته حقها في ميراثها، ثم بدأ يبتزها، وكلما أراد منها توقيعًا أو شيئًا "يُحملها ألف جميله" بأنه أعطاها حقها، وهي تكتم حُزنها وغيظها في قلبها.. فقلتُ في نفسي: إذا كان المنّ بالعطية يُفسد الصَّدقة، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى**﴾ (البقرة:264)، فما بالكم بمن يمُنّ على الآخرين في حقوقهم التي فَرَضَهَا اللهُ تعالى لهم؟! هل تعلم -أيها الغالي- ما معنى: ﴿**لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ**﴾؟

يعني: تُبطل مفعولها.. فلا تنفعه يوم القيامة، مع أنها موجودة، وهي أعمال صالحة وصادقة، وكان مُخلصًا فيها، ويُمكن أن يُنجيهِ ربُّهُ بسببها، لكنه أبطل مفعولها بالمنِّ والأذى، فأصبحت غير نافعة، لا تشفع له، ولا ترفع درجاته، ولا تزيد في ميزان حسناته، فاحذر أن تجعل أعمالك التي تتعب فيها في الدنيا تفقد مفعولها يوم القيامة، قال الشاعر:

أَفْسَدتَ بالمَنِّ ما أَسْدَيتَ من حَسَنٍ *** ليسَ الكَرِيمُ إذ أَسْدَى بِمَنَّانِ

وفي المقابل فإن كرم الله عظيم لمن يمتنع عن المنّ في الأعمال الصالحة و"تحميل الناس جميله"، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُم أَجرُهُم عِندَ رَبِّهِم**﴾ على أعمالهم التي عملوها في الدنيا ﴿**وَلَا خَوفٌ عَلَيهِم وَلَا هُم يَحزَنُونَ**﴾ (البقرة: 262).. فهلا نُسارع لننالَ كرمَ الله ورحمَتَهُ؟

❖❖❖

7

يقول النبي ﷺ: «**لألْقَيَنَّ اللهَ من قبْلِ أن أُعطِيَ أحدًا من مالِ أحَدٍ شيئًا بغيرِ طِيبِ نفْسٍ، إنَّما البيْعُ عن تَراضٍ**» (ابن ماجة)، وفي رواية: «**لا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلا بِطِيبِ نَفْسِهِ**» (أبو يعلى).

في هذه الأحاديث دلالةٌ صريحةٌ على أنَّ أساس انتقال الأموال والحقوق المشروعة أن تكون عن رضا بين المتعاقدين، وعن طيبِ نفسٍ منهما؛ فلا يحلُّ مالُ امرئ مسلم إلا برضاه واختياره.

ما هي العبرة من حديثنا عن هذه المسألة؟ العبرة أن البعض -مع كل أسف- يلجأ إلى إحراج الآخرين لإلزامهم بالموافقة على أمر ما بغير رضاهم، ولأهمية هذه المسألة ذكرها ربُّنا في القرآن: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَموالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ**﴾ (النساء:29)، وخاصة الزوجات بالذات؛ لأنهن الحلقة الأضعف، فيُحرجها زوجها لأخذ مالها سواء المهر أو الراتب أو ميراثها من أبيها وأُمها، فقال تعالى: ﴿**فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً**﴾ (النساء:4)، وإلا لا تأخُذ.

هل تعلم -أيها الغالي- أن الشريعة الإسلامية اعتبرت أخذ مال الغير سواء ببيعٍ أو غيره، والتَّصرُّف فيه بدون إذنٍ أو رضا نوعًا من التَّعدِّي والعدوان والأكل بالباطل، وهو جناية توجب "التَّغريم والتَّأثيم"، يعني العقوبة؟ هذا صحيح.. وهذا أمرٌ مقررٌ في الشَّريعة الإسلامية على وجه القطع، يقول النبي ﷺ: «**كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ دمه، وماله، وعرضه**» (أخرجه مسلم)، يقول الإمام الصَّنعاني رحمه الله في "سُبل السلام": "فيه إخبَارٌ بِتَحرِيمِ الدِّماءِ، وَالأموالِ، وَالأعراضِ، وهو معلومٌ مِن الشَّرعِ عِلمًا قَطعيًّا".

ولأن الرِّضا في المعاملات فيه درءٌ للخصومات ومنعٌ للنزاعات، وتحقيقٌ للعدل والإحسان والمصلحة، بعيدًا عن الخديعة والمكر والتَّدليس، فقد نهت الشَّريعة عن كل ما يُسبب البغضاء والعداوة بين المتعامِلين: «**إنَّما البيْعُ عن تَراضٍ**».

ويدخل في ذلك إحراج الوارثات -البنات أو الأخوات أو العمات...- "بعزومة غداء"، وتخجيلهن أمام الناس، أو تسجيل قطع أراضي "بور" بعيدة جدًا ليست صالحة للإخوة

الصغار، بينما يأخذ الأخوة الكبار قطع الأرض المنسبة الصالحة، أو إجبار الغني لجاره الضعيف الفقير على بيع أرضه القريبة بينما هو لا يريد بيعها لحاجته إليها.. وغير ذلك.

حتى الزواج بدون رضا المرأة قد نهى عنه النبي ﷺ لدرجة أن العلماء اختلفوا في صحة العقد إذا كانت غير راضية به، فليس لولي المرأة أن يجبرها على الزواج بمن لا ترغب به ولا ترضاه ، لقوله ﷺ: «**لا تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ**» (متفق عليه). والحديث "ظاهره العموم في كلِّ بكر، وفي كلِّ وليٍّ، لا فرق بين أب ولا غيره، ولهذا وضع البخاري رحمه الله الحديثَ في "باب لا يُنكِحُ الأبُ وغيره البكرَ والثَّيِّبَ، إلا برضاهما".

ويجب على ولي المرأة أن يتقي الله في بناته ، فلا يزوجهن إلا ممن يرضين به من الأكفاء، فإنه إنما يزوجها لمصلحتها لا لمصلحته .

الخُلاصة

يقول أهل العلم: "ما أُخِذَ بسيفِ الحياءِ فَهُو حَرام" ليس حديثًا نبويًا، لكن معناه صحيح، ويشهد له قول النبي ﷺ: «**لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه**» (رواه أبو يعلى).

❖❖❖

8

قال ﷺ: «**من حَبَسَ العِنَب أيَّام القِطافِ حتى يَبيعَهُ مِمَّن يتخذه خمرًا؛ فقد تَقَحَّمَ النَّار على بَصيرة**» (الطبراني)، وقال عمر بن الحصين رضي الله عنه: "نهي رسول الله ﷺ عن بيع السلاح في الفتنة" (البيهقي).

في هذا الحديث ينهانا النبي ﷺ بيع الأشياء المباحة؛ لكن نِيَّة الشاري أو البائع خبيثة، أو فيها معصية لله تعالى، أو يُمكن أن تُؤذي الناس وتسبب بينهم النزاع والشقاق والقتال، أو تزيد فتنة قائمة، فيصُبّ ببيعه هذا الزيت على النار كما يقولون.

وهذه مسألة مهمة مبنية على حديث السابق (حديث التراضي في المعاملات)، فليس كل الحقوق العبرة فيها بالتراضي؛ فهناك حق لله، وهو ما حَرَّمَهُ تبارك وتعالى، وهناك حق للمخلوق وهو عدم الغش والخداع له، فإذا تنازل المخلوق عن حقه بقي حق الخالق.

ماذا يعني هذا؟ يعني: لو تراضى شخصان أن يُقرض أحدهما الآخر قرضًا بالربا، فهذا عقد غير صحيح ولا يُقبَل؛ لأنه تخطى ما حرمه الله تعالى، فلا يصح العقد ولو عن تراضٍ؛ وذلك لأن دين الإسلام يسعى لحفظ الحقوق للجميع.

وقد نص الفقهاء على تحريم بيع ما يُستعان به على المعصية، كبيع العنب للخمرِ، وبيع السلاح في وقت الفتنة بين المسلمين، وقال ابن تيمية رحمه الله: "ولا يصح بيع ما يُقصد به الحرام إذا علم البائع بذلك أو غَلَبَ عَلى ظَنِّهِ، فلو ظَنَّ المُأجِّر أن المُستأجر يستأجر الدار لمعصية كبيع الخمر، لم يَجُز له أن يؤجرها، ولم تصح الإجارة، والبيع والإجارة سواء". (بتصرف من "الفتاوى الكبرى"). وقال رحمه الله في "شرح العُمدة": "وكل لباسٍ يغلبُ على الظَّنّ أنه يُستعان به على معصية، فلا يجوز بيعه وخياطته لمن يستعين به على المعصية والظلم".

كذلك إذا عَلِمَ البائع أن المشتري سيقترض قرضًا ربويًا لشراء قطعة أرض أو سيارة أو غيرها؛ فإنه لا يجوز له بيعها له؛ حتى لا يُعينه على المعصية، لقوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ (المائدة:2)، وأنت -أيها الغالي- لا شك أنك تخشى الله، ولا تتعاون على الإثم مع أحد..

❖❖❖

9

يقول النبي ﷺ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ**» قُلنَا: بَلَى يا رَسُولَ اللهِ. فقَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ**» وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فقالَ: «**أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ**» فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ. (متفق عليه).

ارجعوا مرة أخرى إلى الحديث وتمعَّنوا في قوله ﷺ: «**أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ**» ليرسخ في قلوبكم خطر قول الزور وشهادة الزور، وهي من أخطر ما يكون أثناء المعاملات بين الناس، حتى أن النبي ﷺ أخذ يُكرر: «**ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور**»، حتى قال الصحابة رضي الله عنهم: "لَيتَهُ سَكَتَ".

وقد قرن النبي ﷺ قول الزور بالشرك، وفي القرآن قُرِنَ بعبادة الأصنام، فقال تعالى: ﴿**فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ**﴾ (الحج:30)، وجعل الابتعاد عنه من أبرز صفات المؤمنين، فقال: ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا**﴾ (الفرقان:72)، ليُبيّن لنا أنه من أعظم الجرائم وأخطر الظواهر في المعاملات، فبسببه تؤكل حقوق الآخرين وأموالهم ظلماً، فكم بريئ بسبب شهادة الزور أصبح متهمًا، وكم من مجرم أصبح بريئاً بسببها، وكم من قضايا باطلة أصبحت صادقة، وقضايا مُحقة أصبحت مُكَذَّبَة، وكم من شخص أُودع السجن وهو بريئ بسبب قول الزور وشهادة الزور.

هذا الذنب الخطير موجود للأسف في مجتمعنا حتى سمعنا عن أناس يجلسون على أبواب المحاكم يبيعون ذممهم ويعرضون شهادتهم ولا يستحون أن يقولوا: "تريد أحداً يشهد معك"؟ فيشهد معه في أمر لم يره ولم يعلم به مقابل ثمن بخس، أو لصديقه أو قرابته، أو يشهد نكاية وعداوة للطرف الثاني، اسمعوا إلى هذه القصة النبوية:

يقول النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رضي الله عنهما: "تصَدَّق عليَّ أبي ببَعضِ مالِه، فقالت أمِّي عَمْرةُ بنتُ رَواحَةَ: لا أرضى حتى تُشهِدَ رَسولَ اللهِ ﷺ. فانطلَقَ أبي إلى رَسولِ اللهِ ﷺ؛ لِيُشهِدَ على صَدَقتي، فقال له رَسولُ اللهِ ﷺ: «**أفعَلْتَ هذا بوَلَدِك كُلِّهم؟**» قال: لا. قال: «**اتَّقوا اللهَ واعدِلوا في أولادِكم**». فرجَعَ أبي، فرَدَّ تلك الصَّدَقةَ، وفي لفظٍ: «**فلا تُشهِدْني إذَن؛ فإنِّي لا**

أشهَدُ على جَورٍ»، وفي لفظٍ: «**فأشهِدْ على هذا غيري**» (أخرجه مسلم).

وقد يظن كثير من الناس أن شهادة الزور مقتصرة على التي في المحاكم وعند القضاة، والحقيقة أن هذا نوع واحد من الزُّور، فَمِنَ أنواع الزور أن تقول أن هذه الأرض "مبيوعة" وهي ليست كذلك؛ لتُعَطّل على الناس سواء البائع أو المشتري، أو تقول أن حدّ أرض فلان هنا وهو ليس كذلك، أو فلان التَّجَّار أو "القَصّير" أو "البلّيط" ليس جيدًا في العمل وهناك فلان (قرابتك) أفضل منه، والحقيقة أنه ليس كذلك، أو أن سعر دونم الأرض في هذا المكان كذا وهي أقل أو أعلى.

ومن الزُّور أيضًا التقارير المزورة للحصول على إجازة من العمل، أو رخصة سياقة، أو الحصول على مساعدة أو تموين من جهة معينة، أو كتابة فواتير مزيفة لأصحاب المحلات التجارية، أو شهادة المهندس بأن المشروع الفلاني تم حسب المواصفات وهو ليس كذلك... الخ..

باختصار

كل قول أو فعل غير حقيقي وفيه كذب فهو زور، وكل شهادة على غير الحقيقة فهي شهادة زور، وشهادة الزور تبقى شهادة زور؛ ولو حتى على مُستوى صغير، كعود سواك أو إبرة، والله تعالى يقول: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ (المائدة:2)..

❖❖❖

10 يقول النبي ﷺ: «**لا يمنعُ أحدُكم جارَه أن يغرزَ خشبةً في جدارِه**»، ثمَّ يقولُ أبو هريرةَ رضي الله عنه -راوي الحديثِ -: "ما لي أراكم عنها مُعرِضين؟ واللهِ لأرمينَّ بها بين أكتافِكم". (متفق عليه)..

لا أحد من المسلمين يجهل حق الجار في الإسلام، والأحاديث في أهمية حفظ حق الجار وحق "الجيرة"، وعدم إيذائه، وإكرامه وتقديم المساعدة له قدر الإمكان؛ متضافرة ومتواترة، لكن الغريب أن المحدثين ذكروا الحديث في باب الصُّلح[1]؛ لأن التسامح في المعاملة بين الجيران وغض الطرف عن الأشياء التي لا تؤذينا، ولا تُسبب لنا الضرر مدعاة للأمن والأمان والصُّلح والاتفاق والوفاق بين الجيران، ومن ثم في المجتمع كُله، وهذه من المصالح والضروريات التي دعا إليها الإسلام.

نفهم من سياق الحديث؛ كأنَّ بعض السَّامعين لأبي هُرَيرةَ رضي الله عنه لم يُعجِبْهم الكلام ولم يَرْضَوا، فقال رضي الله عنه: ما لي أراكُمْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ؟! يعني: غيرَ راضينَ عنْ هذا الحُكمِ وهذا القولِ الَّذي أَمَرَ بهِ النَّبيُّ ﷺ؟! ثم قال: "وَاللهِ لَأَرْمِيَنَّ بِهَا بيْن أَكْتَافِكُمْ"، يعني أنا أقول لكم ما سمعتُ من النبي ﷺ، حتى لو كرهتم ذلك، وهذا المعنى أيضًا للتَّغليظِ والتَّخويفِ على مِن رَدَّ أَمرًا مِن أوامِرِ النَّبيِّ الكريمِ ﷺ وَرَفَضَهُ.

فكان الصحابة رضي الله عنهم يُطبقون أمر النبي ﷺ ولا يرفضونه، كما في سنن ابن ماجه أن أخوين مَنَعَ أحدهما الآخر أن يغرز خشبًا في جداره، ولم يكن قد سمع بالحديث، فأقبل بعض الأنصار وقالوا أنهم سمعوا الحديث من رسول الله ﷺ، فاستجاب مباشرة، وقال: "يا أخي إنَّكَ مَقضِيٌّ لك عليَّ، وقد حلفتُ، فاجعل أسطوانًا دون حائطي أو جداري فاجعل عليه خشبك" يعني: ما دام أن النبي ﷺ قضى بذلك فأنا أقبل.

وهذا يكون إذا لم يتضرر الجدار أو الحدّ أو صاحب الجدار، فلو تضرر صاحب الجدار فله أن يمنع ذلك، لقول النبي ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار**» (سنن ابن ماجة)، ومن المعلوم أنه لا يحل أن يَضُر أحدٌ غيره لمنفعة نفسه.. وليس المقصود الخشبة بذاتها، بل أي شيء

[1] كما في "بلوغ المرام" لابن حجر العسقلاني رحمه الله.

ينفع جارك ولا يضُرّك فاسمح به.. رخِّص له.. فما دام -أيها الغالي- أنك لا تتضرر فَيَسِّر وَسَهِّل وَخَفِّف عن جيرانك وساعدهم قدر المستطاع، لعل الله أن يُخفف عنك يوم القيامة.. فما المُشكلة لوربط جبل الغسيل في جدارك؟ وما المشكلة لو كان الارتداد بعيد 2.5 متر بدل ثلاثة أمتار إذا لم يُضِيرُك هذا؟!

أحاديث مُساندة

قال النبي ﷺ: «**إنّ اللهَ تَعَالَى رَضِي لِهذِهِ الأُمَّةِ اليُسْرَ، وكرِهَ لَها العُسْرَ**» (رواه الطبراني)، وقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا، وَلا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**» (رواه مسلم).

❖❖❖

11 تزوجَ جابِر بن عبد اللهِ رضي الله عنه امرَأَةً، فَلَقِيه النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «**يَا جَابِرُ! تَزَوَّجْتَ؟**» قالَ: نَعَم. قَالَ: «**بِكْرٌ، أَمْ ثَيِّبٌ؟**» قال: ثَيِّبٌ. قَالَ: «**فَهَلا بِكْرًا تُلاعِبُهَا؟**» قال: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ لِي أَخَوَاتٍ، فَخَشِيتُ أَنْ تَدخُلَ بَينِي وَبَينَهُنَّ... فأحبَبْتُ أنْ أتزوَّجَ امرأةً تجمَعُهنَّ وتُمشِّطُهنَّ وتقومُ عليهنَّ" قَالَ: «**فَذَاكَ إِذَنْ**» أو قال: «**بارك الله لك**" (متفق عليه).

هذه القصة طويلة رائعة تستحق أن يتدبر فيها الإنسان ويستخرج منها عبر كثيرة، لكني اختصرتها لأتوقف عند مسألة مَهمة، وهي اهتمام النبي ﷺ بأصحابه، فكان يسأل عنهم إذا غابوا، ويسألهم إذا رأى منهم ضيقًا أو تَغَيُّرًا، ويواسيهم في مُصابهم، ويُهنئهم في أفراحهم ويفرح معهم، وينصحهم إذا طلبوا، ويُساعدهم إذا احتاجوا، ويمدحهم إذا عَمِلوا عَمَلاً حسنًا، وَيُصَوِّبهم إذا أخطأوا... وهنا سمع ﷺ أن جابرًا تزوج، وهو شاب قوي مؤدَّب، فأراد أن يَطْمَئِنّ عليه، ويُشاركه فَرَحَهُ، فسأله: «**تَزَوَّجْتَ؟**»، فأخبره أنه تزوج امرأة ثيبًا، يعني كبيرة كانت متزوجة من قبل، حتى ترعى أخواته الصغيرات وتعتني بهن... انظروا إلى عظمة هذا التفكير من جابر رضي الله عنه، وإلى رحمته بأخواته، حيث ضحى بشهوته ورغبته لأجلهن، وآثرهنَّ على نفسه..

وفي قصة أخرى: رأى النبي ﷺ عبد الرحمن بن عوف يلبس ثيابًا جميلة ويبدو عليه الفرح، فأراد أن يُشاركه فَرَحَهُ، فقال: «**مهيم؟**» -أي ما الأمر- قال: تزوجت امرأة من الأنصار على نواة من ذهب، فقال: «**أولم ولو بشاة**»، شكرًا لله تعالى على نعمة الزواج..

يقول هند بن أبي هالة رضي الله عنه: "كان ﷺ يتفقَّد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس" (الطبراني)، ويقول أنس رضي الله عنه: "كان ﷺ إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيامٍ سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده" (رواه أبو يعلى)، فكان يسأل عنهم، ويطمئن على أحوال معيشتهم، حتى أنه كان يسأل عن الأمطار في بلدهم، وعن المواسم الزراعية، ويفرح إذا أصابهم الخير، ويحزن لمُصابهم... وهناك قصص كثيرة لتفقده ﷺ أصحابه ورعيَّته، حتى أنه ﷺ لما خرج لغزوة تبوك في جيش بلغ عدده

ثلاثين ألفًا يتفقدهم وهم بهذا العدد الكبير، فإذا به في الطريق يقول: «**ماذا فعل كعب بن مالك**»؟! وقال لآخر: «**كُن أبا خيثمة**» عندما لم يجدهم في الجيش. (رواه البخاري).

واقتدى به الصحابة، فكان أبو بكر ﷺ يتفقَّد رعيته لدرجة أنه كان يحلب للفقراء أغنامهم، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يتفقد رعيته وأحوال أمرائه بنفسه، وقصصه في ذلك متضافرة، قال القرطبي ﷺ: "وقد دل القرآن والسنة وَبَيَّنَا ما يجب على الإمام من تفقد أحوال رعيته ومباشرة ذلك بنفسه، والسفر إلى ذلك وإن طال" (تفسير النمل: 20).

ونحن أولى الناس بحبيبنا ﷺ، فيسأل الأب عن أولاده وبناته ويتفقَّد أصحابهم ومن يخرجون ويلعبون معهم، ويتفقَّد أرحامه، ويسأل الجار عن جيرانه، والصاحب عن أصحابه، والمُعلّم عن طُلابه، وزميل العمل عن زميله، وصاحب العمل يسأل عن موظفيه وأحوالهم، لعل أحدهم عنده مشكلة ما فيحلها له، أو يحتاج مالاً فيُعطيه، أو غير ذلك، فإن في تفقد أحوال الناس بابًا واسعًا لجمع الحسنات ومحو السيئات، ويراعي المسلم في تقديم التفقد قاعدة: (الأقربون أولى بالمعروف)، فيبدأ بالوالدين، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم..

فتشبّهوا إن لم تكُونوا مثلَهم *** إنَّ التشَبّه بالكرامِ فَلاحُ!.

❖❖❖

12 قَالَ النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**أمَا تَرْضَى أنْ تَكُونَ مِنِّي بمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِن مُوسَى؟**» (متفق عليه).

لما ذهب النبي ﷺ إلى تبوك؛ عَيَّنَ عَلِيَّ بن أبي طالب رضي الله عنه أميرًا يخلفه على المدينة، فاستغل ذلك المنافقون وصاروا يُشِيعُونَ في الناس: ما خَلَّفَهُ إلا استثقالاً له وتخففًا منه!! فأخذ عليٌّ رضي الله عنه سلاحه ولحق برسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله؛ زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخففتَ مني؟ فقال: «**كذبوا! ولكني خلفتك لما تركتُ ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا عَلِيّ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي**» فرجع عليٌّ إلى المدينة وأرضاه راضياً ممتثلاً لأمر حبيبه ﷺ، ومضى رسول الله ﷺ على سفره. (بتصرف من سيرة ابن إسحاق، وأصله متفق عليه).

و"التخبيب" هو الفتنة بين شخصين بهدف خبيث. والمنافقون وأهل الحقد والبغضاء أكثر الناس نشرًا للإشاعات ونقلاً للأخبار الكاذبة بهدف زعزعة القلوب، ونشر الفتن، وإثارة النزاعات والمشاجرات بين الناس، كالإفساد بين المرء وزوجه، والأب وابنه، والأخ وأخيه، والجار وجاره، ومدير العمل وموظفيه، وهذه من أكبر الجرائم في المعاملات، حيث رتَّب النبي ﷺ عليها عقوبة شديدة، فَحَرَمَهُ من أن يكون في زمرة أهل الإيمان الكامل، فقال ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا، أَوْ عَبْدًا عَلَى سَيِّدِهِ**» وفي رواية: «**ومن أفسدَ امرأةً على زوجِها فليسَ منَّا**» (سنن أبي داود).. ويُروى أنّ النبي ﷺ قال: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ خَبٌّ..**» (ضعيف الترمذي)، أيّ: مُخبِّبٌ بين أفراد المجتمع الذين يعيشون في أمان، لذلك ينبغي على الإنسان أن ينتبه لكلماته، التي قد تؤدي إلى إفساد علاقة رجل بامرأته، وتؤدي إلى الطلاق، أو يتسبب في طرد عامل من مصنع، أو موظف من شركة، أو يُقاطع جارٌ جارَه، وصديقٌ صديقَهُ، أو أُمٌّ أولادَها، بسبب كلمته هذه...

خُذها قاعدة: "ليس كل من يقول لك شيئًا صادقًا"، وليس كل من وَشَى لك عن شخص يكون صادقًا، وليس كل من حدثك عن شريكك في العمل؛ صادقًا، وليس كل من ادعى أنه لك ناصح؛ صادقًا.. فينبغي عليك -أيها الغالي- أن تكون كَيِّسًا فطنًا، وليس إمعة تُصدق كل ما يُقال، وتتصرف دون أن تتثبت من الخبر أو المعلومة.

يقول أمير المؤمنين عمر ﷺ: "لستُ بالخِبِّ"، يعني: لستُ بالماكر المُخادع ولا ناشر فتنة بين الناس ولا مُخببًا أحدًا على أحدٍ -وحاشاه عن ذلك-، "ولا الخِبُّ يَخدعُني" ولا أسمح أن يخدعني الماكِر المراوغ ناشر الفتنة؛ فليس المُؤمن مُخادعًا غادرًا، كما لا يَسمح لغيره أن يغدر به..

وهذا هو الظن بك أيها الحبيب، وخاصة ونحن نعيش في عالم مليء ببشر ذوي أمزجة، وأهواء، وأفكار، وعقليات عجيبة وغريبة، تَشَرَّبت قلوبهم النفاق كما يتشرَّب الثوبُ الصباغ.. عالم فيه الصادق والكاذب، والأمين والمخادع، والحكيم واللئيم، إلى آخر قائمة البشر ذوي الطباع والأمزجة المتنوعة.

❖❖❖

13 يقول ﷺ: «**لا يَقُولَنَّ أحَدُكُمْ خَبُثَتْ نَفْسِي، ولَكِنْ لِيَقُلْ لَقِسَتْ نَفْسِي**» (متفق عليه)، وقوله: "(لَقِسَت) و(خَبُثَت) بمعنى واحد، وإنما كره ﷺ من ذلك اسم الخُبث، فاختار اللفظة السالمة من ذلك".

ومعنى «لَقِسَت» أي: تضايقت نفسي وتغيَّرت وتكدَّرت، حيث ينهي النبي ﷺ عن تحقير الإنسان لنفسه، ويَدفعه إلى تعزيز الثقة بها، فلا يصف المسلم نفسه بالصفات القبيحة حتى ولو كان صادقًا، وأنا أريد الوقوف هنا على هدي النبي ﷺ في التعامل مع الآخرين لأجل تعزيز ثقتهم بأنفُسهم، حيث كان يوجه الرسائل الإيجابية إلى من حوله ليلفت نظرهم إلى الإيجابيات التي لديهم، والصفات الحسنة التي تُمَيِّزهم، وهذا له أثر كبير على نفسياتهم، كما يلفت النظر إلى الميزات التي يتحلى بها الشخص، ويُحسن استثمار الطاقات التي عندهم.

انظروا إلى قوله ﷺ لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**إنَّكَ غُلامٌ مُعَلَّمٌ**»، وقوله لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «**لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود**». وقوله لأشج عبد القيس رضي الله عنه: «**إن فيك لخصلتين يحبهما الله، الحلم والأناة**».

وتمعنوا أيضًا في قوله ﷺ: «**لو كنتُ متخذًا من الناسِ خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً**» (متفق عليه)، «**لو كان بعدي نبيٌ لكان عمر بن الخطاب**» (الترمذي)، «**نعمَ عبدُ اللهِ خالدُ بنُ الوليدِ؛ سيفٌ من سيوفِ اللهِ**»، «**أَمِينُ هذِه الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ**»، «**من شَهد له خزيمةُ فحسبُه**»... وهكذا يقوم النبي ﷺ بتوزيع الأوسمة والنياشين على صحابته التي تعبر عن أهم ما يميزهم وما يتصفون به، وبهاذا يُعلمنا حبيبنا ﷺ الأدب في النطق، ويُرشدنا إلى استعمال اللفظ الحسن، وهجران القبيح منه.

العبرة -أيها الغالي- أن نُحسن التعامل مع أنفُسنا أولاً ومع أبنائنا وإخواننا وأصحابنا، ومن هم تحت رِعايتنا: موظفينا، عمالنا، فنرفع ثقتهم بأنفسهم، بالكلمات البناءة، فيزيد بذلك الخير والإنتاج فيهم، ويخدموا بذلك دينهم ووطنهم.

❖❖❖

14

جاءَ شابٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا! فزجروه وصاحوا عليه، فقال ﷺ: «**ادنه**» يعني: اقترب، فدنا منه قريبًا، فجلس، فقال ﷺ: «**أَتُحِبّه لأمك؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**»، قال: «**أَفَتُحِبّهُ لابنتك؟**»، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لبناتهم**»، قال: «**أَفَتُحِبّهُ لأختك**»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لأخواتهم**»، قال: «**أَفَتُحِبّهُ لعمتك؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لعمَّاتهم**»، قال: «**أَفَتُحِبّهُ لخالتك**»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لخالاتهم**»، قال: فوضع يده عليه، وقال: «**اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصِّن فَرْجَه**»، فلم يكن بعد – ذلك الفتى – يلتفت إلى شيء" (رواه أحمد)..

نقف مع هذا الحديث عند طريقة معالجة النبي ﷺ لأخطاء الناس، ومعاملته مع المخطئين، فلا نعالج الخطأ بخطأ آخر، سواء كانت أخطاء أنفسنا أو أخطاء الآخرين، ولا تكون ردة فعلنا دون تأمُّل في المشكلة وتفكر في حلها، ودراسة الحل والعلاج جيدًا. فكم نقع نحن في أخطاء! وكم نرى من يقع في أخطاء! لكن الحل لا بُد أن يكون بالحكمة والموعظة الحسنة، واختيار الكلمات المناسبة، وفي هذا الحديث سبعة طُرُق ووسائل لعلاج أخطاء الآخرين، منها:

القاعدة الأولى: اللوم للمخطئ لا يأتي بخير غالباً، لهذا لم يستخدمه النبي ﷺ لا مع هذا الشاب ولا مع غيره، وقد وضح لنا أنس رضي الله عنه أنه خدم الرسول ﷺ عشر سنوات، وما لامه على شيء قط.. فاللوم يحطم كبرياء النفس..

القاعدة الثانية: استخدام العبارات اللطيفة في إصلاح الخطأ، فلم يقل له النبي ولا كلمة سيئة أو جارحة، لكنه أثار فيه غريزة حُب الأهل والعائلة والمحارِم ليُشعره بخطورة

الخطأ الذي أراد فعله، فمثلاً حينما نقول للمخطئ: "لو فعلت كذا لكان أفضل"، "أنا اقترح أن تفعل كذا.. ما وجهة نظرك؟". أليست أفضل من قولنا: "يا قليل الأدب"، "أنت ما بتفهم؟"، "كم مرة قلتُ لك؟"..

القاعدة الثالثة: أبعِد الحاجز الضبابي عن عين المخطئ، فالمخطئ أحيانًا لا يشعر أنه مخطئ، فكيف نوجه له لومًا مباشرًا وعتابًا قاسيًا وهو يرى أنه مصيب؟! إذاً؛ لابد أولاً أن نُزيل الغشاوة عن عينيه ليعلم أنه على خطأ، كما فعل النبي ﷺ مع هذا الشاب..

القاعدة الخامسة: ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ويدُلنا على هذا أن النبي ﷺ لم يرضَ لومَ الناسِ وزجرِهِم للشاب، بل قرَّبه منه وناقشه نقاشًا صريحًا دقيقًا، وكلنا يذكر قصة الأعرابي الذي بالَ في المسجد، كيف عالجها النبي ﷺ بالرفق، حتى يُعلِّم الأعرابي أنه على خطأ.

القاعدة السادسة: اجعله يكتشف الخطأ بنفسه، فإذا وجده فإنه سيجد الحل بنفسه، وأشعره أنه بإمكانه إصلاحه.

القاعدة السابعة: الدعاء: فلا تنسى أن الدعاء له بصوتٍ يسمعه؛ يفتح أمامك أبواب عقله وفكره وجوارحه، ويُؤثِّر فيه تأثيرًا عجيبًا.

❖❖❖

15 يقول ﷺ: «**أَربَعٌ مَن كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَن كَانَت فِيهِ خَصلَةٌ مِنهُنَّ كَانَت فِيهِ خَصلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعهَا: إِذَا ائتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**» (متفق عليه).

سأقف في هذا الحديث عند قوله ﷺ: «**وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»، هل تعرفون معناها؟ معناها يستخدم كل طريقة لِقَلبِ الحَقّ إلى باطل، والباطل إلى حَقّ، وخاصة بالكذب، قال ﷺ: «**إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار**» (متفق عليه)، وأيضًا بالصوت العالي المرتفع ليُظهر للناس أنه على حق، وهو ليس كذلك، ينفجر كانفجار البُركان، وهذا يدفعه إلى معصية أُخرى وهي: "البَذاء" وهو النطق بفاحش الكلام بعكس الحياء، قال ﷺ: «**الْحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ، وَالإِيمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَالبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ**» (رواه ابن ماجه)، فيبدأ بالسِّباب والشَّتم والألفاظ النابية التي لا تليق بالمسلم، عافانا الله وإياكم.

و أنت -أيها الغالي- لا تكن مثل هؤلاء الذين "يعملون من الحبة قُبَّة"، ويُكبرون الصغير بالكذب والإفك والصراخ، فالنبي ﷺ سمع يوماً أصحابه وهم يرفعون أصواتهم بالقرآن.. بالقرآن.. فقال: «**ألا إن كلكم يناجي ربه، فلا يؤذي بعضكم بعضًا، ولا يرفعن بعضكم على بعض في القراءة**» (موطأ مالك)، فإذا كان هذا في قراءة القرآن الذي هو قُربة إلى الله تعالى، فكيف بأصوات الصّراخ والشَّتم التي تؤذي المسلمين، وتَجمع عليهم الحارة كُلها؟

ويزيد الأمر سوءً إذا كان الرَّجُل يعرف أنه على باطل، فينتصر بفجوره للباطل، ويعتدي على صاحب الحق، وهذا من أقبح المحرمات، ومن أخبث خصال النفاق، يقول حبيبنا ﷺ: «**من خاصَمَ في باطلٍ وهو يَعلَمُ لم يَزَلْ في سَخَطِ اللهِ حتى يَنزِعَ**»، وفي رواية: «**مَن أَعَانَ عَلَى خُصُومَةٍ بِظُلْمٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**» (رواه أبو داود).. فمن منا يتمنى هذا العقاب الرباني؟ لا أظن أن عاقلاً يقبله.. فكن أنت هذا العاقل..

❖ ❖ ❖

16 يقول النبي ﷺ: **«لا طلاقَ إلا فيما تملِكُ، ولا عتقَ إلا فيما تملِكُ، ولا بيعَ إلا فيما تملِكُ»، «ولا وفاءَ نذرٍ إلا فيما تملِكُ»** (أبو داود)، قال الترمذي: "أكثر أهل العلم كرهوا أن يبيع الرجل ما ليس عنده".

هذا حديث آخر يؤكد حرص دين الإسلام على منع أي مشاكل أو شِجارات أو خلافات بين المسلمين من خلال حفظ الحقوق، ومنع الظلم والغَرر والخِداع، في كافة أنواع المعاملات: الاجتماعية أو المالية أو غيرها.

وهذه مسألة مهمة جدًا، لأن التَّصرف في ما لا تملك فيه خداع وكذب وتزوير[1]، إذ كيف يُطَلِّق الرجل امرأة غيره؟ أو ينذر ذبح غنمة جاره؟ فَبَيع ما لا تملك يُسبب خلافات بينك وبين المشتري عندما يكتشف أنك "وَرَّطتَهُ" في مشكلة، أو تحصل خلافات بين المشتري والمالك الأصلي أو الشَّريك، وهذا نلاحظه كثيرًا في بيع الأراضي المملوكة لعدة وَرَثَة، فالمسلم لا ينبغي أن "يُوَرِّط" الناس في مشاكل هم في غنى عنها.

انظروا إلى هذه القصة: حَكِيمِ بنِ حِزَامٍ رضي الله عنه يقول: أَتَيتُ النبيَّ ﷺ فَقُلتُ: يَأتِينِي الرَّجُلُ يَسأَلُنِي مِن البَيعِ مَا لَيسَ عِندِي، أَبتَاعُ لَهُ مِن السُّوقِ ثُمَّ أَبِيعُهُ؟ قَالَ: **«لا تَبِع مَا لَيسَ عِندَكَ»** (أبو داود)، أي: ما ليس في مُلكك، أو ما لا تقدر على تسليمه، كأن يكون غير موجود في السوق فتبيعه على أمل أنك ستسعى لتوفيره وهذا لا يجوز، وبيان هذا جاء في حديثٍ آخر: **«مَن ابتاع طعامًا فلا يَبِعهُ حَتى يَستوفِيه»** (رواه البخاري)؛ لأنه أكثر ضماناً للحقوق، وأقل للخلافات.

وفي الوقت نفسه هذا ينطبق على الشراء، فلا يجوز للفرد شراء شيء ليس مملوكًا مُلكًا شرعياً لأحد مثل السِّلع والخدمات الوهمية، وذلك لعدم تحقق الشرعية في ملكيتها.

❖❖❖

[1] واستُثني من ذلك بيع السَّلم، كأن يبيع ألف كيلو غرام من الزيتون بسعر خمسة آلاف شيكل يقبضها عند العقد، على أن يسلم الزيتون بعد أربعة أشهر مثلاً، وهو عقد مشروع باتفاق، وقد دل على مشروعيته الكتاب والسنة، على أن يكون كيلاً معلومًا ووزنًا معلومًا إلى أجل معلوم. (د. حسام الدين عفانة).

17

"نَهَى النبي ﷺ عَن بَيعِ الثَّمَرَةِ حَتَّى تُزهِيَ، قَالُوا: وَمَا تُزهِيَ؟ قَالَ: «تَحْمَرُّ»، فَقَالَ: «إِذَا مَنَعَ اللهُ الثَّمَرَةَ فَبِمَ تَسْتَحِلُّ مَالَ أَخِيكَ؟»، أو قال: «بمَ يأخُذُ أحدُكم مالَ أخيه؟»، وفي رواية: "نهى رسول الله ﷺ عن بيع الثمرة حتى يبدو صلاحها، نهى البائع و المُبْتَاعَ"، (متفق عليه).

في هذا الحديث ينهانا النبي ﷺ عن بيع الثمار وهي على الشجرة قبل أن تكبر ويظهر صلاحُها، ويبدو فيها الخير والنفع، وقد علل ﷺ هذا باحتمال أن لا تُنتج هذه الشجرة، فكيف بك أيها المسلم أن تستحل مال أخيك فتربح منه، بينما هو يخسر؟

أريد أن أقف عند التعليل النبوي العجيب لهذا النهي: «**إِذَا مَنَعَ اللهُ الثَّمَرَةَ فَبِمَ تَسْتَحِلُّ مَالَ أَخِيكَ؟**»، حيثُ يُعلمنا النبيُّ ﷺ أن ننظر إلى الناس بالعين التي ننظر بها إلى أنفُسنا، فإذا أردت أن تتعامل أي معاملة مع أخيك؛ ضع نفسك مكانه، هل تقبل بالشروط التي وضعتها عليه؟ لو أنك مكانه؛ هل تقبل بالبضاعة التي ستبيعها إياها؟ لو أنك مكانه؛ هل تقبل بالسعر الذي طلبته؟ هذه أسئلة مهمة أيها الكرام؛ لأن كل لا تقبله لنفسك كيف تقبله لإخوانك؟

هل تعلم أن من علامة كمال الإيمان أن يحب المسلم الخير للآخرين كما يحبُّه لنفسه؟ قال النبي ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» (متفق عليه)، والمعنى: "لا يكمُل إيمانُ أحدِكم حتى يحبَّ لأخيه في الإسلام مثلَ ما يحب لنفسه".. وفي رواية: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيرِ**» (النسائي)، وفي أخرى: «**لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يُحبَّ للنَّاس ما يُحبُّ لنفسه**» (ابن حبان).. لهذا كان ﷺ إذا أراد أن ينصح أحد يقول له قبل النصيحة: «**يَا فلان، إِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، وَأَكْرَهُ لَكَ مَا أَكْرَهُ لِنَفْسِي افعل كذا أو لا تفعل كذا**» (مسلم، بمعناه).

والآن؛ تفكر –أيها القارئ الغالي– في هذا الكلام النبوي، والتعليمات الراقية: «..**كُنْ وَرِعًا تَكُنْ من أَعْبَدِ الناسِ، وارْضَ بما قسم اللهُ لكَ تَكُن من أَغْنَى الناسِ، وأَحِبَّ**

للمسلمينَ والمؤمنينَ ما تُحِبُّ لنفسِكَ وأهلِ بيتِكَ ، واكْرَهْ لهم ما تَكْرَهُ لنفسِكَ وأهلِ بيتِكَ تَكُنْ مؤمنًا، وجاوِرْ مَن جاوَرْتَ بإحسانٍ تَكُنْ مُسْلِمًا... » (الترمذي).. كلام عجيب، لو أننا أردنا الخير لأنفُسنا لطبقناه بحذافيره، ولعمّ الخير في كل المجتمع.

فإذا تعاملت مع الناس فانظر إليهم بهذه النظرة، وسترى كيف ستتغير حياتك، وتطمئن نفسك، ويَصُلح بالك؛ لأنك تُخرج من قلبك كل إحساس بالعُلو على إخوانك، وقد جاء في الحديث: «**لا يدخلُ الجنَّةَ من كانَ في قلبِه مثقالُ ذرَّةٍ مِن كِبْرٍ، ولا يدخلُ النَّارَ مَن كانَ في قلبِه مثقالُ ذرَّةٍ من إيمانٍ**» فقال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ، الرَّجلُ يحبُّ أن يَكونَ ثوبُه حسنًا، ونعلُه حسنةً، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، إنَّ الكِبْرَ مَن بطِرَ الحقَّ وغمَصَ** -أو غَمْطِ- **النَّاسَ**» (مُسلم).. باختصار: لا تُحب أن تربح أنت في مقابل خسارة أخيك.. ولا تُحب أن تكسب أحسن بضاعة بينما يأخُذ أخوك الرديء، لا تُحب أن تنفق بضاعتك وتسعى لتبور بضاعة أخيك.. أو تُنقص من سعر الأرض إلى درجة بخس الناس أشياءهم، وتقول: اشتريتها لَقْطَة! فهذه ليست لقطة، وأنت تعلم علم اليقين أنها تُساوي أكثر من هذا، وأنك ضغطتَ على أخيك مستغلاً حاجته لتأخذها بهذا السعر... وغير هذا الكثير من المعاملات.

وقد مدح اللهُ تعالى الأنصار ﭫ بقوله: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (الحشر:9).

تطبيق عملي

يقول عبد الله بن عباس ﭬ يقول: "ما نزل غيث بأرض إلا فرِحت بذلك، وليس لي فيها شاة ولا بعير، ولا سمِعتُ بقاضٍ عادلٍ إلا دعوت الله له، وليس عنده لي قضية، ولا مررتُ بآيةٍ من كتاب الله إلَّا أحببت أن يعلم الناس منها ما أعلم".

❖❖❖

18

"كان رجلٌ من الصحابة يحضر مجالس النبي ﷺ، ويُحضِر معه ابنه الصغير، يلعب عندهم، فمات الولد وامتنع الرجل أن يحضر المجالس حُزنًا عليه، ففقده ﷺ، وقال: «**ما لي لا أرى فلانا؟**»، قالوا: يا رسول الله! ابنه مات، فَلَقِيَهُ ﷺ، وَعَزَّاهُ، ثم قال: «**يا فلان! أيما كان أحب إليك: أن تُمَتَّع به عمرك، أو لا تأتي غداً إلى باب من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك؟**»، قال: بل يسبقني إلى باب الجنة، فيفتحها لي لهو أحب إليَّ، قال: «**فذاكَ لكَ**»، فقالوا: يا رسول الله! أَلَهُ خاصَّة، أم لِكُلِّنَا؟ قال: «**بل لِكُلِّكُم**» (رواه النسائي).

حديث عجيب نرى من خلاله عظمة حبيبنا ﷺ، وطريقته في التعامل مع أهل الابتلاء، فيربط قلوبهم بالجنة، ويُذكِّرهم بما أعده الله لهم فيها... والمُصاب هنا جلل، فالميت صبيّ صغير، ولا شك أن موته يؤثر في الأهل، وخاصة الأب الذي يتأمَّل أن يكبر ابنه ويحمل اسمه ويرفع رأسه، ويدعو له بعد موته، لكن النبي ﷺ يستخدم طريقة ربط القلوب بحب الله تعالى والصبر على المُصاب.. فما من شيء أكثر من حُبّ الله يُطمئن القلب ويربط عليه ويُثبته..

وهذه حقيقة؛ فأول ما ينبغي علينا فعله في التعامل مع ذوي الابتلاء هو تعليق قلوبهم بالله تعالى، وبما أعده الله للصابرين في الجنة، لهذا كان النبي ﷺ إذا مرَّ على آل ياسر وهم يُعذبون يقول لهم: «**صبراً آل ياسر، فإنَّ موعدَكم الجنة**».. الجنة.. لم يُعلقهم بالدنيا، فلم يقل: اصبر سأُعَيّنك وزيرًا.. أو سأجعل لك راتبًا.. مع أنها أشياء مهمة لشخص كعمار، لكن أفضل ما يُصَبِّر القلب ويُثبته: حُب الله تعالى، والربط بالعبادات، بل إن ابنته فاطمة عندما جاءت تشكو تعب العمل في المنزل وخارجه، وطلبت منه خادمًا يُساعدها في العمل.. طلبت شيئًا من أشياء الدنيا.. فأرشدها إلى التسبيح والتحميد والتهليل، كما في صحيح مسلم.

ومن جميل وحسن معاملته ﷺ لأصحابه مشاركته آلامهم وآمالهم، وشعوره بأحزانهم، والتخفيف عنهم، وتحويل ألمهم أملاً، ومحنتهم منحة، انظروا إلى هذه القصة الرائعة لتروا

تأثير التذكير بما أعده الله في الجنة على النفس المؤمنة، فعندما رأى رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين والأنصار يحفرون الخندق في يوم بارد جدًا، ورأى ما بهم من النَصَب والتعب والجوع قال على مسامعهم: «**اللهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة**»، ففرحوا بهذه الكلمات، وارتفع منسوب الإيمان واليقين عندهم، وأرادوا التعبير عن استعدادهم للتضحية، فقالوا مجيبين له: "نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبدا" (رواه البخاري)..

وهنا يأتي دورنا للاقتداء به، فإذا حصل مع أحد أي ابتلاء، صديق حصل عنده نائبة ما.. موظف في شركتنا مات قريب له.. عامل ضربت يده الماكينة في المصنع.. أو آخر وقع عن "السقالة" في ورشته.. فلنُصبّرهم ونرفع معنوياتهم بزيادة الإيمان في قلوبهم، والرضا بقضاء وقدره، وتذكيرهم بما أعده للصابرين في عنده في الجنة، وقد أوصى ﷺ ابن عَمِّه عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: «**واعلَمْ أنَّ ما أخطَأَكَ لم يَكُن لِيُصِيبَكَ، وما أصابَكَ لم يَكُن ليُخطِئَكَ**»، والله تعالى يقول: ﴿**ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ (التغابن:11)، وفي قراءة: ﴿**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدَأ قَلْبُهُ**﴾.. أي: يَسكُن ويرتاح ويطمئنّ..

❖❖❖

19

خَرَجَ جابر رضي الله عنه مع النَّبيّ ﷺ في غَزوةٍ، فأبطَأَ به جَمَلُه، فسأله النبيُّ ﷺ: «**يا جابِرُ.. ما شَأنُكَ؟**» قال: أَبطَأَ بي جَمَلِي، فَتَخَلَّفتُ، فوخزه بعصاه، ثُمَّ قالَ: «**اركَب**»، فَرَكِب، فصار سريعًا يُسابق ناقة رَسولِ اللهِ ﷺ... ثُمَّ قالَ: «**أَتَبيعُ جَمَلَكَ؟**» قال: نَعَم، فَاشتَرَاهُ مِنهُ بأُوقِيَّةٍ، ولما قَدِمَوا المدينة، جاء جابرُ والنبي ﷺ على بَابِ المَسجِدِ، فَقالَ: «**فَدَعْ جَمَلَكَ، وَادخُل فَصَلِّ رَكعَتَينِ**»، فأمَرَ بلَالًا أَن يَزِنَ له أُوقِيَّةً، فَوَزَنَ وأرجَحَ في المِيزَانِ، ثم قالَ ﷺ: ادعُ لي جَابِرًا، فَدَعاه، فَقال في نفسه: الآنَ يَرُدُّ عَلَيَّ الجَمَلَ.. فَقالَ: «**خُذ جَمَلَكَ وَلَكَ ثَمَنُهُ**» (متفق عليه).

جابر بن عبد الله رضي الله عنه -الذي تحدثتُ عنه في حديث سابق- إنسانٌ رائع.. أخلاق عالية، وإخلاص وحُب لا مُتناهي لدينه ولأهله، لكنه كان فقيرًا، وضعه المادي ليس جيدًا، في يوم من الأيام وهم راجعون من إحدى الغزوات، كان يركب جملاً ضعيفًا لا يستطيع المشي، فأراد النبي ﷺ أن يواسيه ويدعمه ماديًا، فقال: «**يا جابِرُ... ما شَأْنُكَ؟**» فأخبره أن جمله ضعيف لهذا يتأخر عن الركب، قالَ: «**أَتَبيعُ جَمَلَكَ؟**» وكيف لجابر أن يبخل بجمل على رسول الله؟ مع أنه بحاجته، لكنه وافق على بيعه بأوقية من الفضة، ولما وصلوا إلى المدينة أرسل جابرُ الجمل إلى النبي ﷺ، ووزن له بلال أوقية، وزاد عليها، وعندما هَمَّ جابر بالذهاب، دعاه النبي ، فَقال في نفسه: "الآنَ يَرُدُّ عَلَيَّ الجَمَلَ!" يعني: أخاف أن يكون النبي غضب مني وتراجع عن شراء الجمل، لكنه ﷺ قال له: «**خُذْ جَمَلَكَ وَلَكَ ثَمَنُهُ**».

ما أعظم معاملة الحبيب ﷺ!! أولاً: سعى لمعرفة أحوال جابر، ثم لم يُحرجه أمام الناس بالصدقة عليه، فجاءَ بقصة البيع أمام الناس، كي لا يُشعره أنها صدقة، ولما كانا وحدهما أعطاه الجمل والثمن. فهل نعتبر من فعله ﷺ ونقتدي به؟ فنتفقد أحوال أصدقائنا، ونُعين المحتاجين منهم دون إحراج؟ وننتهي عن إحراج الناس بتصوير الصدقات، ونشرها على وسائل التواصل.. أو استخدام الصَّدقة كدعاية لشركتنا أو مؤسستنا..

أعرف مُعَلِّمًا كان في مدرسةٍ دَرَستُ فيها، كان دائم التفقُّد لأحوال الطلاب وهم من قرى ومُدن مختلفة، فتجده يعرف كل أحوالهم، ويتعاون مع أشخاص داعمين، ويشتري لهم الكُتُب، ويدفع الرسوم، دون أن يعلم الطالب شيئًا.. ويرقُب الفقراء فيُعطيهم ما تَيَسَّر من أهل الخير، فجزاه الله خيرًا..

والهبة عبادة من العبادات المستحبة؛ لما فيها من تأليف القلوب، وتحصيل الأجر والثواب، وحصول المحبة والمودة، حتى ولو كانت قليلة إلا أنها تجبر قلبًا، أو تَسُدّ جوعًا، أو تُساعد على شفاء مريض، اسمعوا إلى هذا الحديث: يقول النبي ﷺ: «**يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، لا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا، وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ**» (متفق عليه).. ولو ساق أو حافر شاة..

فما أجمل أن يتفقد الإنسانُ الآخرين، وخاصة إذا كان يربطهم علاقة كالعمل أو القرابة أو غير ذلك، فيزيد أجرة الفقير، أو يعطيه منحة ما.. ولا ننسى أن كل دينار تُنفقهُ يُرَدُّ إليك في الدنيا ولا بُد.. ولن تُحرم أجره يوم القيامة..

❖❖❖

20 الصَّعبُ بن جَثّامة رضي الله عنه يقول: "أهديتُ إلى رسول الله ﷺ حمارًا وحشيًّا، فَرَدَّهُ عليَّ، فلما رأى ما في وجهي قال: «**إنا لم نردَّه عليك إلا أنَّا حُرُم**»" (متفق عليه)..

هذا الصحابي الجليل من أشجع الصحابة، حيث شارك في كل غزوات النبي ﷺ مجاهدًا وصابرًا وصادقًا، أراد أن يُعبر عن حُبه لرسول الله ﷺ فأهداه حمارًا وحشيًا كان قد اصطاده له، والحمار الوحشي -كما هو معلوم- من الصَّيد، ويحل أكله، وهذه الحُمُر كانت موجودة في جزيرة العرب في ذلك الحين، لكن النبي ﷺ لم يقبله منه، ورَدّ عليه هديته، الصَّعبُ رضي الله عنه تضايقَ وحَزِنَ، فرأى النبي ﷺ ذلك في وجهه، وعرف أنه حزين، فذهب إليه وبيَّن له سبب تصرفه هذا، وقال له: «**إنا لم نردَّه عليك إلا أنَّا حُرُم**».. لأني أنا مُحرم، ولا يجوز للمحرم الصيد، ولا أكل الصيد..

ومن هنا ندخل إلى جمال وروعة معاملات النبي ﷺ، وحرصه حتى على مشاعر الآخرين، فالمسلم لا يُحب أن يكون في قلوب الناس عليه شيء، والإنسان حينما يصدر منه تصرف إزاء الآخرين قد يُحزنهم؛ فإنه يُبيّن سبب ذلك حتى لا يغتموا أو يحزنوا، أو يسيئون الظن، فيظنون أنه يقصد الإساءة لهم، أو أنه غضبان عليهم، وهذا يحصل كثيراً، وهنا يبدأ الشيطان بعمله المحبب لديه وهو الإفساد بين الناس، فيجعلهم يغتابونهُ ويتحدثون عنه وعن تَصَرُّفهُ، فيجب أن نقطع عليه الطريق.

صحيح أن حديث : «**رحِم الله امرأً جبَّ أو ذبَّ الغِيبة عن نفسه**» ضعيف لا يصُح عن النبي ﷺ؛ ولكنه صحيح من حيث المعنى، فينبغي للإنسان أن يكف الغيبة عن نفسه، فلا يعمل الأشياء التي تجعل الناس يغتابونه، ويتحدثون عنه، حتى وإن كان طيبًا يحترمه الناس يحسنون الظن به ولا يتهمونه بشيء؛ لأن الشيطان ربما يلقي في قلوبهم أشياء لا نعلمها، فهذا حبيبنا ونبيّنا محمد ﷺ خرج ذات مرة مع زوجته صفية بنت حيي رضي الله عنها، ليوصلها إلى بيتها بعد أن زارته وهو معتكف في المسجد، فَمَرَّ به رجلان من الأنصار.. فأسرعا المشي، فقال لهما رسول الله ﷺ: «**على رِسلِكُما، إنها صَفية بنت حُيَيّ**»، يعني:

انتظرا.. لا تسرعا.. إنها صفية زوجتي.. فقالا: "سبحان الله!".. وهل يشُكّ الصحابة بحبيبهم ﷺ؟ لذلك بيّن لهم ﷺ وقال: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًا أو شيئًا**»-.. وهم صحابة.. وما أدراك ما الصحابة.. فينبغي للمسلم استشعار تلك المعاني العظيمة فيدرأ عن نفسه قول الناس بالابتعاد عن مواطن التُّهَم، وكل ما يدعوهم إلى ظن السوء به، ويُبيّن لهم سبب تصرُّفه فيفتح قلوبهم، ويُنقيها من كل دَرَن، وهذا من علامات القلب السليم..

❖❖❖

21

يقول أَنَس بنِ مَالِك ﷺ قَالَ: "كُنتُ أَمشِي مَعَ النَّبيّ ﷺ وعَلَيهِ رِدَاءٌ نَجرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدرَكَهُ أَعرَابِيٌّ، فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبذَةً شَدِيدَةً، نَظَرتُ إِلَى عُنُقِ رَسُولِ اللهِ وَقَد أَثَّرَت بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِن شِدَّةِ جَبذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُر لِي مِن مَالِ اللهِ الَّذِي عِندَكَ، فَالتَفَتَ إِلَيهِ رَسُولُ اللهِ، فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ"، وفي رواية: "ثُمَّ جَبَذَهُ إِلَيهِ جَبذَةً، رَجَعَ نَبِيُّ اللهِ فِي نَحرِ الأَعرَابِيِّ"، وفي رواية أخرى: "فَجَاذَبَهُ حَتَّى انشَقَّ البُردُ، وَحَتَّى بَقِيت حَاشِيَتُهُ فِي عُنُقِ رَسُولِ اللهِ" (متفق عليه).

هل تتخيلون الموقف؟؟ أعرابي يُمسك برداء الرسول ﷺ من الخلف بدون سابق إنذار، ويسحبه بِقُوَّة حتى (مَزَعَ) رداءه من قوة الجذب، وما هو السبب؟؟ السبب العجيب أنه أتى ليطلب مالاً أو شيئًا!! فهل يتعامل السائلُ الذي يطلب شيئًا بهذه الطريقة؟ لكن حبيبنا وقُدوتنا ﷺ أكثر الناس حِلمًا.. وأرقى الناس تعاملاً.. وأجمل الناس خُلُقًا.. تعامل معه بقمة الحِلم.. لم يضربه ولم يُعَنِّفه.. حتى أنه لم يذم فعله هذا.. ولم يكتفي النبي بحِلمه؛ بل تبسَّمَ وأمرَ له بعطاء، وَمَنَحَهُ ما طلب، فيأمر أحدَ الصحابة أن يحمل له على بَعيريه؛ أحدهما شعيرًا، والآخر تمرًا، كما في رواية أبي داود.

يقولون في الأمثال: "الحِلم سيِّد الأخلاق"، وهذا صحيح، فهو يجمع في طياته الصبر والكرم والرضا وضبط النفس وكبت الغضب وَرَدّ السيئة بالحسنة، وكل هذا من شخص قادر على الانتقام، أو أَخْذِ حَقّهُ منهم بسهولة؛ لأن في قلبه إيمان يمنعه عن هذا، فما أحوجنا اليوم إلى هذا الخُلُق العظيم، فهو من صفات المؤمنين الصادقين ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ**﴾ (آل عمران:134).

ولا يقولنّ أحدٌ: هذا نبي ونحن لا نستطيع أن نفعل مثله.. بل يجب أن نقتدي به كما اقتدى الصحابة، فهذا أبو بكر ﷺ قال له رجل: "واللهّ لأَسُبَّنك سبًّا يَدخل القبرَ معك"، فقال ﷺ: "معكَ يَدْخل لا مَعي".. وانتهى الأمر هنا، لا صياح ولا شتم ولا ألفاظ نابية، ولا محاكم، ولم يجمع العائلة، ولم يتصل بالأصحاب، ولم يتصل بالشرطة.

وأبو الدرداء ﷺ عندما شتمه رجُل؛ قال له: "يا هذا، لا تغرقنَّ في سبِّنا، وَدَع للصُّلح موضعًا؛ فإنَّا لا نكافئ مَن عصى اللهَ فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه".

وسبَّ رجلٌ ابنَ عباس ﷺ فلما فَرَغَ قال: "يا عكرمة! هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فَنَكَّس الرجل رأسَه واستحى".

وسبَّ رجلٌ أبا هريرة ﷺ، فتوضأ أبو هريرة وتوجَّه إلى القِبلة، وقال: "اللَّهُمَّ إنَّ عبدك هذا سبَّني، وقال عنِّي ما لم أعلمه من نفسي، اللَّهُمَّ إن كان عبدك هذا صادقًا فيما قال عنِّي، اللَّهُمَّ فاغفر لي، اللَّهُمَّ إن كان عبدك هذا كاذبًا فيما قال عنِّي، اللَّهُمَّ فاغفر له، فانكبَّ الرجل على رأس أبي هريرة ﷺ يُقَبِّلُها".

خرج إبراهيم بن أدهم ﷺ يومًا يمشي فَمَرَّ على رجلٍ من اليهود وكان معه كلب، فأراد اليهودي أن يُغضبَ إبراهيم، فقال له: يا إبراهيم، لحيتُك هذه أطهر من ذَنَب كلبي أم ذَنَبُ كلبي أَطهر من لحيتك؟ فإذا إبراهيم يقول: إن كنتُ من أهل الجنَّة فإنَّ لحيتي أطهر من كلبك، وإن كنتُ من أهل النَّار فذَنَب كلبك أَفْضل من لحيتي، فقال الرجل: هذه أخلاق النبوَّة، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

فرحم الله الرَّعيلَ الأول، كانوا لا يتعدُّون كتابَ الله، وما غضبوا لأنفسهم قطُّ، فزادهم الله عزًّا ورفعةً وثناءً حسنًا، قال ﷺ: «**وما زاد اللهُ عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا**» (صحيح مسلم).. فهل يكون لنا من الاقتداء بهم نصيبٌ؟!

❖❖❖

22

قال عبد الله بن الحارث ﷺ: "ما رأيتُ أكثر تبسُّمًا منه ﷺ". ويقول جابر بن سمرة ﷺ: "جالست رسول الله ﷺ أكثر من مائة مرّة، فكان أصحابُه يتناشدون الشِّعرَ، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهليّة، وهو ساكت، وربّما تبسّم معهم". وقال بعض أصحابه: فإنك تُداعِبنا يا رسول الله؟! فقال: «**إني لا أقول إلا حقًا**» (رواه أحمد).

الحقيقة أنا أحببتُ أن أضُم الابتسامة إلى هذه الباقة من الأحاديث النبوية؛ لأني قرأتُ بحثًا علميًا عن فوائدها، حيث يقولون: "من المسلَّم به بأن الابتسامة تُسَرِّع الشفاء من الأمراض وهي خير علاج لقلب الإنسان، وهي غذاء للنفس والروح، وتساعد على الهضم، وتحفظ الشباب، وتزيد من نشاط الذهن ومردوده، وتقوي القدرة على تثبيت الذكريات وتوسيع ساحة الانتباه والتعمق الفكري، وبالتالي يصبح المرء أقدر على التخيل والإبداع ودقة التفكير، وتبعث الابتسامة فينا السعادة الداخلية وبالتالي تزداد إشراقة الوجه من جديد بالحيوية والنشاط.. ويؤدي إلى زيادة إفرازات الغدد الصُّمّ مثل غدة البنكرياس والغدد الكظرية والدرقية والنخامية والتوتة، وفي مقدمة تلك الغدد القلب لأن القلب غدة صماء أيضًا ويفرز هرمون الببتيد الأُذيني المُدِرّ للصوديوم".

وقد اعتبرها النبي ﷺ إحدى وسائل غرس الأُلفة والمحبة بين الناس، ووسيلة دعوية مهمة، ومفتاح للقلوب، فكان ﷺ بَسَّامًا مع زوجاته، وفي مجالسه مع أصحابه، أو الوافدين عليه، أو مع من كان يدعوهم، وكان ﷺ لا يُفَرِّق في ابتسامته وحُسْن لقائه وبشاشته بين الغنيّ والفقير، والأسود والأبيض، حتى الأطفال كان يبتسم في وجوههم ويُحسِن لقاءهم، يعرف ذلك كل مَنْ صاحبه وخالطه..

وللأسف كثير من الأشخاص لا يعرفون الابتسامة والبِشر في بيوتهم ولا أماكن عملهم ولا في الشارع، وهذا لا شك يؤثر سلبًا على أولادهم، وأذكر أن أحد الأطباء كان دائمَ التبسُّم لمرضاه في المستشفى، ومرة جاء مريضٌ مُتألمًا، فقال له الطبيب وهو يبتسم: خيرًا إن شاء الله، ما يؤلمك؟ فقال المريض: من ابتسامتك يا دكتور أصبحت أفضل حالاً.

ولا تحسب -أيها الغالي- أنها مسألة بسيطة وقليلة، فحبيبك ﷺ يقول لك ولي ولكل مسلم: «**لا تحقرَّن مِنَ المَعروفِ شيئًا، ولو أنْ تَلْقَى أخاكَ بوَجْهٍ طَلْق**» أي: ضاحكٍ ومُستبشِر (رواه مسلم).. فَجَرِّبها فعلاً تجد لها أثرًا كبيرًا، وتزيد من أنتاجك وإنتاج عائلتك أو موظفيك، يقول علماء النفس: "بسبب مفعول الابتسامة في تحسين المزاج، وحسب الدراسات التي أجريت فإنّ الشخص العامل الذي يبتسم أثناء عمله ويجعل من حوله يبتسمون هو شخص أكثر إنتاجية من غيره وذلك بسبب الراحة التي يشعر بها"[1].

"ويميل كثيرون إلى استخدام مستحضرات التجميل وإنفاق الكثير من المال حتى يظهروا بشكل جذاب، لكن دراسة أعدتها "جامعة سوانسي" بالمملكة المتحدة، أظهرت أنه ليس عليك سوى الابتسام حتى تبدو رائعًا للآخرين"، أما حبيبنا ﷺ فلم يكتفِ بأن يكون قدوة لنا في الابتسامة، بل دعانا إليها وحثَّنا عليها بقوله. فقال: «**تَبَسُّمُك في وَجْه أَخِيك لك صدقة**» (رواه الترمذي)، يعني: إذا أظهرتَ له البَشَاشَة والبِشْر فإنك تؤجر كما تؤجر على الصدقة.

❖❖❖

[1] .Meg Selig, (25-5-2106), "The 9 Superpowers of Your Smile" psychologytoday

23

كان سلمان الفارسي ﷺ عبدًا، ثم كاتَبَ صاحبه على 300 نخلة وأربعين أوقية. فقال النبيّ ﷺ لأصحابه: «**أعينوا أخاكم**». فأعانوه فيجيء الرجل بثلاثين وديَّة، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، حتى اجتمعت ثلاث مائة ودية. فقال ﷺ: «**اذهب يا سلمان فَفَقِّر لها** -احفر لها-، **فإذا فرغتَ فائتني أكون أنا أضعها بيدي**». فحَفَرَ لها وأعانه الصحابة، وزرعها النبي ﷺ بيده. يقول سلمان: "فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة، فأديت النخل، وبقي علي المال"، فأتاه رسول الله ﷺ بمثل بيضة دجاجة من ذهب، وقال: «**خذها، فأد بها ما عليك**»... فأوفى الثَّمن وأصبح حُرًّا.. (أخرجه أحمد).

في هذه القصة تظهر روح التعاون بين المسلمين، والعمل التطوعي الذي ينفع الأمة، سواء على مُستوى الأفراد أو الجماعة، أو على مستوى الأمة كلّها، وقد حَثَّ عليه الإسلام؛ لأنه ظاهرة اجتماعية تُحقق الترابط والتآلف والتآخي بين الأخوة والأصحاب والأحباب، وبين الأسرة الواحدة، وأفراد المجتمع.

ومن القصص المشهورة أيضًا في جمع النبي ﷺ أصحابه على قلب رجل واحدٍ عند تأسيس وبناء المسجد النبوي، فاشترك المسلمون جميعًا في البناء، وعلى رأسهم حبيبهم وإمامهم محمد ﷺ، بل كان أول عمل تعاوني عام، وَحَّد بين القلوب، وأظهر الهدف العام للعمل، وقد كان لكل حي في المدينة - قبل قدوم النبي ﷺ- مكان يلتقون فيه، فَيَسْمَرُون ويسهرون، وينشدون الأشعار، فكانت هذه الحال تدل على الفرقة والاختلاف، فعندما بُنيَ المسجد كان مركز المسلمين جميعًا، ومكان تجمعهم، يلتقون به في كل وقت، ويسألون رسول الله ﷺ فيعلمهم ويرشدهم ويوجههم.

"وبهذا تجمعت الأندية، والتفَّت الأحياء، واقتربت القبائل وتحابَّت، وانقلبت التفرقة إلى وحدة، ولم تَعُد في المدينة جماعات، بل جماعة واحدة، ولم تَعُد زعامات، بل قائد واحد، هو رسول الله ﷺ يتلقى من ربه الأوامر والنواهي، ويُعلِّم أمته، فأصبح المسلمون

صفًّا واحدًا، وامتزجت النفوس والعقليات، وتقوت الوحدة، وتآلفت الأرواح، وتعاونت الأجسام".

ومن هنا ينبغي للمسلم المشاركة في خدمة المجتمع، بأي طريقة أو وسيلة كانت، طاعةً لقوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ (سورة المائدة:2)، كما بيّن حبيبنا ﷺ مكانة العمل التطوعي في الإسلام في أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: «**كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عليه صَدَقَةٌ، كُلَّ يَومٍ تَطلُعُ فيه الشَّمسُ، قالَ: تَعدِلُ بينَ الاثنَينِ صَدَقَةٌ، وتُعِينُ الرَّجُلَ في دابَّتِهِ فَتَحمِلُهُ عليها، أو تَرفَعُ له عليها مَتاعَهُ صَدَقَةٌ، قالَ: والكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وكُلُّ خُطوَةٍ تَمشِيها إلى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ، وتُمِيطُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**» (متفق عليه)..

والتطوع دأبُ الأنبياء والصالحين، فقد تطوّع موسى ﷺ بالسقي للمرأتين اللتين كانتا تنتظران حياء حتى ينتهي الرجال، فسقى لهما دون أن يسألاه ذلك، قال تعالى: ﴿**فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾ (القصص: 24)، وتطوع ذو القرنين لحماية الضعفاء، ببناء السَّد بغير أجر: ﴿**قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا**﴾ (الكهف:95)، تطوع الخضر في مساعدة النَّاس وحفظ حقوقهم: كما جاء في قصته مع موسى ﷺ.

فبادر أيها الغالي.. فما أحوج المسلمين اليوم إلى معرفة قيمة العمل التطوعي في الإسلام، والقيام به خير قيام كما أمر ربنا جل وعلا، ونبينا ﷺ حتى تحقق السعادة والسكينة والطمأنينة للفرد والمجتمع.

❖❖❖

24

عبد المجيد بن وهب -وهو تابعيّ ثقة- يقول: "قال لي العَدَّاء بن خالد بن هوذة رضي الله عنه: "ألا أُقرئك كتاباً كتبه لي رسول الله ﷺ؟ قلتُ: بلى، فأخرج لي كتاباً: «**هذا ما اشترى العَدَّاء بن خالد بن هوذة من محمد ﷺ اشترى منه عبداً أو أمةً لا داء ولا غائلة ولا خبثة، بيع المسلم المسلم**»" (رواه الترمذي)..

في هذا الحديث نصيحة لنا كمسلمين، وهي توثيق وكتابة الدّيون لأجل حفظ حقوق الدائنين، وعدم ضياعها، وقطعاً للنزاع، ودرءًا للشرور والخلافات والظنون السَّيّئة بين الناس، وهو تشريع إسلامي غاية في السمو والرقي وحفظ الحقوق، فقد أمر الله عز وجل المؤمنين بتوثيقها في كتابه الكريم، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ**﴾ (البقرة: 282).

وقد أَقَرَّ الإسلام طُرُقًا للتوثيق وحماية الحقوق، منها: التوثيق بالكتابة، والشهادة التي يَثبُت بها الحق في الذمة، والتوثيق بالعقود كالرهن الذي يُطَمئِن الإنسانَ على ماله، وأيضًا الكفالة، وغيرها، كما يُندبُ التوثيق في المعاملات الآجلة صغيرها وكبيرها، استجابة لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ**﴾ (البقرة:282)، وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا باع بِنَقدٍ أشهَدَ، وإذا باع بنسيئة (إلى أجل) كَتَبَ وأشهَدَ.

وقد حفظ لنا التاريخ أقدم كتاب عَقَدَهُ رسول الله ﷺ: «**بسم الله الرحمن الرحيم، كتابٌ من محمد رسول الله لفتاه أسلَمَ، إني أعتقك لله عِتقا مبتولاً، الله أعتقك وله المَنّ عَلَيّ وعليك، فأنت حُرٌّ لا سبيل لأحد عليك إلا سبيل الإسلام، وعصمة الإيمان شهد بذلك أبو بكر، وشهد عثمان، وشهد عليّ، وكتبَ معاوية بن أبي سفيان**».

(التراتيب الإدارية).

واسمع -أيها الغالي- إلى هذه القصة، يقول النبي ﷺ: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهرَهُ، فَسَقَطَ مِن ظَهرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِن ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَينَ عَينَي كُلِّ إِنسَانٍ مِنهُم وَبِيصًا مِن نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُم عَلَى آدَمَ. فَقَالَ: أَي رَبِّ، مَن هَؤُلاءِ؟**».

قَالَ: هَؤُلاءِ ذُرِّيَّتُكَ. فَرَأَى رَجُلا مِنهُم فَأَعجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَينَ عَينَيهِ، فَقَالَ: أَي رَبِّ مَن هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِن آخِرِ الأُمَمِ مِن ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ. فَقَالَ: رَبِّ كَم جَعَلتَ عُمرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً. قَالَ: أَي رَبِّ، زِدهُ مِن عُمرِي أَربَعِينَ سَنَةً.

فَلَمَّا قُضِيَ عُمرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ المَوتِ، فَقَالَ: أَوَلَم يَبقَ مِن عُمرِي أَربَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوَلَم تُعطِهَا ابنَكَ دَاوُدَ؟ قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَت ذُرِّيَّتُهُ، وَنُسِّيَ آدَمُ فَنُسِّيَت ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَت ذُرِّيَّتُهُ» (رواه الترمذي).

الخُلاصة

احفظ حقوقك بأي وسيلة مشروعة، بالتوثيق والكتابة، أو الشهود، أو الرهن، أو غيرها، فهذا أقسط وأعدل وأبعد عن الشك: **﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾**، قال العلماء: "وما حقق العدل وكان سبباً لحماية الحقوق فهو واجب".

❖❖❖

25

قال النبيُّ ﷺ: «**والمسلمونَ على شروطِهم، إلا شرطًا حرَّم حلالا أو أحلَّ حرامًا**» (أخرجه الترمذي).

قاعدة نبوية إيمانية شاملة، من ثلاث كلمات: «**المسلمونَ على شروطِهم**» تقطع الطريق على كل من ينوي أكل حقوق الآخرين بإنكار الشروط المتفق عليها في العقد، فهذا أمر من النبي ﷺ بالوفاء بكل شرط تم الاتفاق عليه بين طرفين، سواء في صكوك الصُّلح في الاقتتال والشِّجارات، أو العقود والمُعاملات العامة، كعقد الزواج أو العمل أو الإجارة أو غيرها، فما دُمتَ قد اتفقت مع جهة العمل -مثلاً- وَوَقَّعتَ معها العقد؛ فيلزمك الوفاء بما التزمت به، وما وَقَّعتَ عليه، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾ (المائدة:1)، ويقول: ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا**﴾ (الإسراء:34)، فإن الشرط الذي يشترطه أحد المتعاقدين على الآخر مما له فيه مصلحة، فذلك جائز، وهو لازم إذا وافقه الآخر عليه، وأقَرّ به، ومثال ذلك أن يشترط المشتري: أن يدفع الثَّمَن أو بعضه مؤجَّل بأجل مسمى، أو يبيع الشيء ويشترط البائع: أن ينتفع به مُدة معلومة، أو أن يشترط سُكنى البيت، أو الدكان مدة معلومة، أو يستعمل الإناء مدة معلومة، وما أشبه ذلك.

أما الاستثناء من هذه القاعدة فهو إذا انتهكت حُرمات الله تعالى: «**إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً**»، فلا يجوز بحال أن يوافق المسلم على شرط فيه سخط لله تعالى، فيُحِلّ ما حرَّم الله، أو يُحلل ما حرَّم، كأن يشترط زيادة ربوية على المال في القرض، أو يشترط تأجير المحلات التجارية لبيع خمور، أو تشترط المرأة طلاق أختها (ضرتها) للموافقة على العقد، أو غيرها من العقود، وحتى لو تم الاتفاق عليها فإنها شروط لاغية لا يُعتَدّ بها، وإن كان العقد صحيحًا، قال ﷺ: «**لاَ يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تَسْأَلُ طَلاَقَ أُخْتِهَا لِتَسْتَفْرِغَ صَحْفَتَهَا ، فَإِنَّمَا لَهَا مَا قُدِّرَ لَهَا**» (متفق عليه)، وفي رواية: «**لا تَسْأَل الْمَرْأَة طَلَاق أُخْتهَا لِتَسْتَفْرِغ صَحْفَتهَا فَإِنَّ الْمُسْلِمَة أُخْت الْمُسْلِمَة**» (رواه ابن حِبّان). فإن الشرط المخالف للشرع باطل غير جائز ولا نافذ.

ومن فوائد قوله: «**إلا شرطاً حرم حلالا، أو أحل حراماً**»: أن حكم الشرع فوق حكم المخلوق ، ولهذا إذا خالف شرط المخلوق شرط الخالق وجب إبطاله .

ومن فوائد الحديث: مِن عمومه، بُطلان جميع الأنظمة المخالفة للشرع، لأن الأنظمة المخالفة للشرع شروط توضح بوضع البشر، فكل القوانين المخالفة للشرع مهما كان وضعها فهي فاسدة، لا يجوز تنفيذها، بل يجب إبطالها، وقد أبطل النبي ﷺ الشرط الفاسد حتى بعد أن اشتُرط كما في قصة بُريدة مع عائشة رضي الله عنها .

انتبه

يقول النبي ﷺ: «**ما بَالُ أُنَاسٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا ليسَ في كِتَابِ اللهِ، مَنِ اشْتَرَطَ شَرْطًا ليسَ في كِتَابِ اللهِ فَهو بَاطِلٌ، وإنِ اشْتَرَطَ مِئَةَ شَرْطٍ شَرْطُ اللهِ أحَقُّ وأَوْثَقُ**» (رواه البخاري).

❖❖❖

26 خرَجَ النَّبيُّ ﷺ إلى المُصلَّى، فرَأَى النَّاسَ يَتبايعونَ، فقال: «**يا مَعشَرَ التُّجارِ**».. فاسْتجابُوا لِرسولِ اللهِ ﷺ ورَفَعُوا أعناقَهم وأبْصارَهُم إليه، فقال: «**إنَّ التُّجارَ يُبعثُونَ يَومَ القِيامةِ فُجَّارًا إلا مَنِ اتَّقَى اللهَ وبَرَّ وصَدَقَ**» (أخرجه الترمذي)..

هذا الحديث من أهم الأحاديث في المعاملات المالية؛ لأنه يتحدث عن التُّجار والتجارة، وهي من أهم مصادر الرزق على مرّ التاريخ، لكن قد يتساءل أحدنا: هل نأخذ من الحديث أن الإسلام كره التجارة؟ الجواب: الإسلام لم يكره التجارة أبدًا، بل إن النبي ﷺ تاجَرَ مع عمه، وتاجَرَ مع خديجة رضي الله عنها، وكثير من الصحابة كانوا يُتاجرون، كعثمان وعبد الرحمن بن عوف، وحكيم بن حزام رضي الله عنه وغيرهم.

السؤال الثاني: لماذا التُّجار بالذات الذين يُبعثون فُجَّارًا يوم القيامة؟ الجواب: ليس كُل التجار، ففي الحديث استثناء: «**إلا مَنِ اتَّقَى اللهَ وبَرَّ وصَدَقَ**».

أما لماذا؟ فقد سأل الصحابة هذا السؤال للنبي ﷺ لما سمعوه يقول: (**إنَّ التُّجَّارَ هُمُ الفُجَّارَ**)، قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَ لَيسَ قَد أَحَلَّ اللهُ البَيعَ؟ قَالَ: (**بَلَى؛ وَلِكِنَّهُم يُحَدِّثُونَ فَيَكذِبُونَ، وَيَحلِفُونَ فَيَأثَمُونَ**) (رواه أحمد)، فالمسألة أن التجارة قد تدفع الإنسان إلى التمسُّك بالدنيا، فيُغضب الله من أجل دُنيا فانية، فيكذب في حديثه ليربح أكثر، أو يحلف بالله كاذبًا، أو يحلف بغير الله ليُنفق سلعته ويكسب دراهم معدودة، فالذي يقول لك: والله إن هذه ثمنها علي كذا لكي يأخذ منك مالاً أكثر وهو كاذب في يمينه، فقد وقع في اليمين الغموس الذي يغمس صاحبه في النار والعياذ بالله، لذا أمرهم النبي ﷺ بالصدقة ليُكفروا عن زلاتهم أو أخطائهم أثناء البيع والشراء، فقال ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ، إِنَّ الْبَيْعَ يَحْضُرُهُ اللَّغْوُ وَالْحَلْفُ، فَشُوبُوهُ بِالصَّدَقَةِ**» (رواه أبو داود)، وفي رواية: «**يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ، وَالإِثْمَ يَحْضُرَانِ البَيْعَ، فَشُوبُوا بَيْعَكُمْ بِالصَّدَقَةِ**» (رواه الترمذي)، وقد ذكر (الشيطان) وهو التأثير الخارجي على الإنسان فيدفعه إلى الحرام، وذكر (الإثم) للتعبير عن التأثير الداخلي النفسي كاتباع الهوى أو النفس الأمارة بالسوء.

بل جاء مدح التُّجار الملتزمين بأوامر الله تعالى، وسُنة النبي ﷺ في تجارتهم، فقال ﷺ: (**التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ**) (رواه الترمذي)، التاجر الأمين الذي لا يستغل أوقات الابتلاء والحروب والقحط لزيادة أرباحه دون وجه حق، فيرفع سعر السلع عن قيمتها الحقيقية، أو يسعون لاحتكار المنتجات حتى ترتفع أثمانها مما يضر باقتصاد البلاد ويُثقل كاهل العباد، ويجعل الناس في ضيق من العيش..

التاجر الأمين الصدوق لا يبيع ما يضُر به الناس، ولا يأكل أموالهم بالباطل، فيستحق أن يُحشر مع النبيين؛ لأنهم لم يخالف التعاليم النبوية الشريفة في التجارة والبيوع، ومع والصديقين؛ لأنه كان صادقًا مع الله ومع نفسه، ومع الشُّهداء؛ لأن صحيفته ستشهد بصدقه وأمانته، والناس أيضًا سيشهدون له عند الله.

تحذير!!

قال الله تعالى: ﴿**وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾ (هود: 85)..

❖❖❖

27 قال النبيُّ ﷺ: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أو وَضَعَ عنه أَظَلَّه اللهُ في ظِلِّه**» (رواه مسلم)، وفي رواية: «**من أنظر معسراً أو رفق به، أظلَّه الله في ظلِّه**».

ما أعظم دين الإسلام، وما أرقى شريعته التي تجعل من كل قول أو فعل عبادة يتقرب بها الإنسان إلى ربه تبارك وتعالى إذا أخلص نيته فيها لله، ثم ينال عليها الجزاء الأوفى يوم القيامة، فمن هذا الحديث تنطلق الأنوار الإيمانية التي تملأ القلب وتعمُرُهُ، وتفتح للعقل أبواب التفكُّر والتدبُّر في ما ينفعه، وما أظن عاقلاً يرفض هذا الأجر العظيم: أن يُظِلّه الله تعالى في ظلِّ عرشه يوم القيامة، يوم الأهوال والأحوال، حيث "«**تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ**»... «**فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا**» وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ" (رواه مسلم).

وأنتَ أيها الأخ العزيز لا ترى حرًا، ولا ترى شمسًا، ولا ترى عرقًا، ولا تشعر بأهوال ولا كُربات يوم القيامة، بمجرد فعل بسيط لا يُكلفك شيئًا، فقط أن تُيَسِّر على المعسر، فإذا أقرضتَ أحدًا مالاً، أو بِعتَهُ شيئًا، أو لك عليه دَينٌ، ثم سامحته، أو خففت منه، أو أمهلته مُهلة إضافية، فإن الله الشَّكور يشكر لك فعلك ويُظلك في ظل عرشه الكريم.

ولعلك تسأل: أسامح بمالي؟ نعم؛ إذا كان بإمكانك، أو كان لا يضُرّك، أو كنت لا تحتاجه، والله العظيم إن ذلك أفضل لك.. أفضل لي؟ نعم؛ فالله تعالى من قال ذلك: قال الله تعالى: ﴿**وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة:180).. وإذا قال الله ﴿**خَيْرٌ لَكُمْ**﴾ معناها خير لكم 100٪.

هل سمعت –أيها الغالي–: بأبي قَتادةَ الأنصاري رضي الله عنه؟ صحابي من أعظم المجاهدين في سبيل الله في زمن النبوة وزمن الخلفاء الراشدين، قال عنه النبي ﷺ: «**خَيرُ فُرسانِنا أبو قتادة**» (صحيح مسلم)، كان له دَينٌ على رجلٍ، ولم يكن مع الرَّجُل ما يسُدّ به دَيْنَهُ، فَكان يتَوارَى حياءً حتى لا يراه أبو قتادة، ثم وجده، فقال: إِنِّي مُعْسِرٌ فقال: آلله؟ قال:

آلله.. فَرَقَّ لحاله، وبكى، وقال: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**مَنْ سرَّه أن يُنْجِيَه الله من كُرَبِ يومِ القيامة فَلْيُنَفِّسْ عن مُعْسِرٍ أو يَضَعْ عنه**» (رواه مسلم).

خُذ هذه أيضًا من بُرَيدَة.. هل تعرف بريدة الأسلمي؟ صحابي من قيادات الجيش الإسلامي الكبار، أعطاه النبي ﷺ اللواء يوم فتح مكة، يقول رضي الله عنه للنبيِّ: "سمعتك يا رسول الله تقول: «**من أنظر معسرًا فله بكل يوم مِثلهُ صدقة**»، ثم سمعتك تقول: «**من أنظر معسرًا فله بكل يوم مِثلَيهِ صدقة**»، فقال ﷺ: «**له بكل يوم صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل الدين فأنظره فله بكل يوم مثليه صدقة**»". (رواه أحمد)..

هل لاحظت كلمة: (كل يوم)؟ أنه دين الإسلام العظيم.. دين الرحمة والرأفة والإحسان.

قصة للتدبُّر

يقول النبي ﷺ: «**كان تاجرٌ يُدَاينُ النَّاسَ، فإذا رأى مُعْسِراً قال لفِتْيانه: تَجَاوَزُوا عنه، لعلَّ اللهَ أن يتجاوزَ عنَّا، فتجاوزَ اللهُ عنه**» (متفق عليه).

❖❖❖

28 قال النبيُّ ﷺ: «**مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى الله عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ الله**». (رواه البخاري).

في الحديث السابق رأينا عظمة تشريع دين الإسلام ورحمته، حيث أمر اللهُ تعالى بإنظار المعسِر والصّبر عليه، وهنا الخطاب للمَدِين (الذي عليه الدَّين)، يأمُره بالمسارعة إلى سداد دَينه، ولا يجوز له شرعًا أن يؤخِّر أو يُماطل في السَّداد وهو يملك المال، لأن الله حذَّرَنا فقال: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ**﴾ (البقرة: 188)، ويقول النبي ﷺ: «**مَطلُ الغَنِيِّ ظُلمٌ**» (متفق عليه).

وفي هذا الحديثِ أمرين؛ الأول: ترغيب المَدِين في أن ينوي بصدق نية السداد، ولا يُبيّت نية الغدر والمماطلة، فإن «**من أخذ أموال الناس**» مثل القرض أو اشترى شيئًا بالدَّين، أو استعار آلةً أو أدوات، وهو «**يريد أداءها**» عازم على قضائها وردها إلى صاحبها؛ «**أدى الله عنه**» فييسر له الرزق والبركة والخير، أي: يتكفل الله بتيسير السَّداد له.

والأمر الآخر: ترهيب من بيَّتَ نية الخداع وعدم السَّداد، و«**يُريد إتلافها**» يعني: ينوي أن لا يُرجعها إلى صاحبها، سواء كانت مالاً أو أغراضًا، فإن النبيّ ﷺ يُهدده ويقول: «**أتلفه الله**»؛ أي أهلكه الله، وأوقعه في البلايا والمصائب، وَضَيَّقَ عليه، ومحق بركته.

فَإِنَّ على من يقترض من أخيه لتفريج كربةٍ وقضاءِ حاجةٍ أن يُحسن الأداء؛ فلا يليق بمُسلمٍ طائع لله أن يُقابل إحسان الناس إليه بالخداع والمماطلة، قال تعالى: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**﴾ (الرحمن: 60)، وفي الحديث: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ قَضَاءً**» (النسائي).

☜ كانَ لِرَجُلٍ علَى النبيِّ ﷺ سِنٌّ مِنَ الإبِلِ (ناقة صغيرة)، فَجَاءَهُ يَتَقَاضَاهُ، فَقالَ: «**أَعطُوهُ**»، فَطَلَبُوا سِنَّهُ (نفس عُمره)، فَلَم يَجِدُوا له إلَّا سِنًّا فَوقَهَا (يعني أفضل منه)، فَقالَ: «**أَعطُوهُ**»، فَقالَ: أَوفَيتَنِي أَوفَى اللهُ بكَ، قالَ النبيُّ ﷺ: «**إنَّ خِيارَكُم أَحسَنُكُم قَضَاءً**» (متفق عليه)، يعني: إنَّ أفضَلَكُم في مُعامَلةِ النَّاسِ، وأكثَرَكُم ثَوابًا؛ هو أحسَنُكم قَضاءً وأداءً لِلحُقوقِ الَّتي عليه، سواء كانت دَينًا أو غَيرَهُ.

❖❖❖

الحديث التاسع والعشرون: الرَّهن.

29 عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَت: "اشْتَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ يَهُودِيٍّ طَعَامًا بِنَسِيئَةٍ، فَأَعْطَاهُ دِرْعًا لَهُ رَهْنًا" (رواه البخاري).

أردتُ الحديث عن الرهن كمعاملة من المعاملات لأن كثيرًا من الناس يستهجنها اليوم، والحقيقة أنها من محاسن الشريعة الإسلامية؛ لأن فيه مصلحة للدائن والمدين معاً، فالدائن (صاحب الدَّين) يَطمئِنّ على حقه، فيكون مُشَجِّعًا له على إقراض أخيه المسلم، والمقتَرِض أيضًا يستفيد؛ لأنه سيجد من يُقرضه حاجته، وإذا مُنِعَ الرهن، فقد يمتنع كثير من الناس من الإقراض خوفاً على أموالهم من الضياع. ولأهميته فقد ذَكَرَهُ الله في القرآن، فقال تعالى: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ**﴾ (البقرة: 283).

وأنا لا أريد الخوض في أحكام الرهان الفقهية، فله باب خاص في كُتب الفقه، لكني أريد أن أقف على سبب هذه المعاملة بين النبي ﷺ واليهودي، مع أنه كان أزْهدَ النَّاسِ، راضيًا بالقليلِ، يُنفِقُ كُلَّ ما يأتيه مِن الأموالِ على الفُقراءِ والمُحتاجينَ وفي سَبيلِ اللهِ.

يقول أنس بن مالك ﵁ وهو شاهد عيان؛ فقد كان خادمًا عنده ﷺ: "لَقَدْ رَهَنَ النبيُّ ﷺ دِرْعًا له بالمَدِينَةِ عِنْدَ يَهُودِيٍّ، وأَخَذَ منه شَعِيرًا لأَهْلِهِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يقولُ: ما أَمْسَى عِنْدَ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ صَاعُ بُرٍّ، ولَا صَاعُ حَبٍّ، وإنَّ عِنْدَهُ لَتِسْعَ نِسْوَةٍ" (رواه البخاري).

فالسبب هو أنه ﷺ يُريد أن يأتي بطعام لأهله وعائلته وأزواجه، وكان يقول: «**ما أَمسى عِندَ آلِ مُحَمَّدٍ صاعُ بُرٍّ ولا صاعُ حَبٍّ**»، أي: لم يَبقَ عندَهم أيُّ قدرٍ مِن قَمْحٍ أو شَعيرٍ، وما قال ذلكَ تَضجُّرًا أو شاكيًا -حاشاهُ اللهُ مِن ذلك- وإنَّما قالَه ليُبيّن سبب رَهْنِه دِرْعَه عندَ اليَهوديِّ.. يقول أَنَسٌ ﵁: "وإنَّ عِندَه لَتِسعَ نِسوةٍ"، وكُلهم في أمَسِّ الحاجةِ إلى الغِذاءِ، ففيه إظهارٌ للسَّببِ في شِرائِه (بالدَّين) ورَهْنِ الدِّرعِ.

فمثل هذه المعاملات كالرهن والقرض والاستدانة والنَّذر؛ وإن كانت تُسهل على الناس وتُلبي حاجاتهم إلا أنه لا ينبغي التعامل بها إلا للضرورة، والحاجة الماسَّة، لأنها تُرهق كاهل الإنسان، وتزيد همًّا فوق همه، وغمًّا فوق غمه، فلا يرهن أشياءه أو يقترض

لأسباب تافهة، ليست ذات أهمية، أو لأجل الزينة أو التفاخر أو شراء الكماليات التي يُمكن أن يستغني عنها ما دام فقيرًا أو مُحتاجًا.

سؤال

لماذا تعامل النبي ﷺ مع يهودي بالبيع والشراء والرهن، بينما هناك الكثير من الصَّحابة الأغنياء والتُّجار يُمكن أن يتعامل معهم؟

الجواب: لعله أراد أن يُعلّم أُمَّتَه بجواز معاملة الكفار في المعاملات المشروعة كالبيع والشراء، وقيل السِّر في ذلك أنه خشيَ أنهم لا يأخذون منه ثَمَنًا، أو عِوضًا، فلم يُرِد التضييق عليهم، وقد كان كثير منهم يُهدونه المنائح، وغيرها، والله أعلم.

❖❖❖

30 يقول النبي ﷺ: «**التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، والعَجَلَةُ مِنَ الشيطانِ، وما أحدٌ أكثرُ مَعَاذِيرَ مِنَ اللهِ، وما من شيءٍ أحبَّ إلى اللهِ مِنَ الحَمْدِ**».

(أخرجه البيهقي وأبو يعلى).

هذه قاعدة عظيمة ينبغي أن يُطَبّقها كل من يُريد تحقيق العدل والحق في حياته ومعاملاته، وهي التأني وعدم التَّسرع، سواء في اتخاذ القرارات، أو في الحكم على الناس، أو في تطبيق العقوبات، حتى يتثبَّت ويتبيَّن، وإلا وقع في الحرج والحرام، ثم في الندم، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ (الحُجُرَاتِ: 6).. لاحظوا الوصف القرآني لمن ينقل الأخبار دون تأكُّد وتبيُّن بأنه (فاسِق).

وقوله تعالى: ﴿**فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ ستكون هذه الندامة في الدنيا عندما يكتشف أن كلامه كذب وافتراء، ويرى براءة من تحدث عنهم، ويندم أيضًا في الآخرة عندما يرى ما أعده الله له من عذاب جزاء إيذاء الناس.

والتأني والتَّثبُّت قبل أي تصرُّف خلق عظيم من أخلاق الإسلام؛ فيه حفظ للأرواح، وصيانة للدّماء، وحماية لحقوق الأفراد والجماعات، وقطع لدابر الفتنة والصِّراعات، فما أحوجنا إليه؛ في زمن تُرمى فيه التهم جزافًا، وتنقل فيه الإشاعات، وكَثُرت فيه وسائل التواصل، وأصبح قَلبُ الحق باطلاً والباطل حقًّا بكبسة زر على الهاتف الجوال.

والتثبت فضيلة، ودليل على رجاحة العقل وسلامة التّفكير. والعجلة رذيلة، ودليل على نقص العقل؛ لأنه قد يؤدي إلى ظلم الأبرياء، وإيذائهم ماديًا أو جسميًا أو نفسيًا، قال تَعَالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا**﴾ (الأَحْزَابِ: 58).. انظروا إلى هذه الأمثلة:

لما هاجر الصحابة ﭫ من مكة إلى الحبشة وكانوا في أمان، أُشيع أن كفار قريش في مكة أسلموا كُلهم، فخرج بعض الصحابة من الحبشة راجعين إلى ديارهم، فقد شعروا بالأمان، وتكبدوا عناء الطريق حتى وصلوا إلى مكة، لكنهم وجدوا الخبر غير صحيح،

فأمسك بهم كفار قريش وعذبوهم وأساموهم سوء العذاب والأذى، وكل ذلك بسبب الإشاعة الكاذبة.

في غزوة أحد لما قتل مصعب بن عمير ﷺ أُشيع أنه الرسول ﷺ، وقيل: "قُتل رسول الله".. فتراجع جيش الإسلام بسبب الإشاعة الكاذبة، فبعضهم هرب إلى المدينة، وبعضهم ترك القتال، حتى جاء أنس بن النضر ﷺ وقال لهم: ما أجلسكم؟ قالوا: قُتِل رسول الله! فقال: ويحكم! قوموا فموتوا على ما مات عليه!!

وأخطر إشاعة مَرَّت على النبيّ ﷺ والمسلمين: حادثة الإفك التي اتهمت فيها عائشة ﷺ البريئة الطاهرة بالفاحشة، وما حصل لرسول الله ﷺ والمسلمين معه من بلاء وكرب لمدة شهر كامل، وكل ذلك بسبب الإشاعة الكاذبة.

فالإنسان المسلم الصالح حريص على ما يَصلُحُ به دينُه وعِرضُه وتصلحُ به حياته، ينأى بنفسه عن كل ما يؤذيه أو يؤذي غيره، لا ينخدع بالكلمات البراقة، ولا بالوشايات والإشاعات.. ليس كل ما يُقال عن أخيك صحيحًا.. وليس أي حديث عن موظَّفك دقيقًا.. وليس كل ما يَصِلُكَ عن شريكِكَ وابنك حقيقة.. فيجب أن تتثبت وتتيقَّن وتتبيَّن.. فكن حَذِرًا من الوقوع في هذا المنزلق الخطير، فإني لك ناصح، وعليك حريص.

تطبيق عملي

لما سمع أبو بكر الصديق ﷺ بخبر وفاة النبي ﷺ، كان في عوالي المدينة (مكان بعيد)، فجاء ولم يُكلِّم أحدًا، ودخل بيت عائشة، وكشف عن وجه النبي ﷺ، ثم قبَّله وقال: "طِبْت حيًّا وميتًا" ليُعلِّمنا التثبُّت والتبيُّن من صِحَّة الأخبار، وبعد أن تأكد خرج ليُخبر الناس.

❖❖❖

31

جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ اللهِ، كم نعفو عن الخادمِ؟ فصمَتَ، ثم أعادَ عليه الكلامَ، فصَمَتَ، فلما كان في الثالثةِ قال: «**اعفُوا عنه في كل يومٍ سبعين مرةً**». (رواه أبو داود).

هذا الحديث أيضًا أصلٌ من أصول التعامل بين الناس، فإذا نظرتَ في كثير من الخلافات المجتمعية تجد سوء الظن وعدم إعذار الآخرين السبب الرئيسي لها، ولو استعمل الناس فيما بينهم فَنَّ الإعذار وَرَبُّوا أبناءهم عليه منذ الصغر؛ لانحلت معظم خلافات المجتمع، ولتحول إلى مجتمع رباني تسوده المحبة والألفة والإخاء.

أمر النبي ﷺ في الحديث بالعفو سبعين مرة؛ هذا بالنسبة عن الخادم أو العامل أو الموظف، فما بالك بأهلك وولدك وأقربائك وأصدقائك ومن لهم حق عليك؟! إن التماس عُذر الآخرين إثبات لسلامة الصدر، ونقاء السريرة؛ لأنه يجمع في طياته عدة أخلاق حسنة، كاللين والعفو والصفح والتغافل والشفقة والرحمة والتسامح وكظم الغيظ، ونضوج العقل وحسن التفكير وجودة التقدير وقوة الشخصية وتحمل المسئولية.

يقول العامة: "التمس لأخيك سبعين عذرا" وهذا ليس حديثًا عن النبي ﷺ، بل مقولة لجعفر بن محمد رحمه الله يقول: "إذا بلغك عن أخيك الشيء تُنكره فالتمس له عذراً واحداَ إلى سبعين عذرًا، فإن أصَبتَهُ وإلا قُل: لعلَّ له عذرًا لا أعرفه"، وقال عمر رضي الله عنه : "لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن شرّاً، وأنت تجد لها في الخير محملاً".

وهذا كلام جميل دقيق المعنى، يسُد كل الطرق الشيطانية المؤدية إلى فساد ذات البين بين الناس، وهي أحب صفة إلى إبليس.. فالتماس العذر ديدن المسلم، فمن اعتذر لك فاقبل عذره، فالله تعالى يقول: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (آل عمران: 134)، وما أجمل النص القرآني البديع إذ يقول: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ (الأعراف:199).

وفي مقابل هذه المسألة المهمة؛ هناك مسألة أخرى، وهي قوله ﷺ في وصيته لأحد أصحابه: «**وإيَّاكَ وما يُعتَذرُ منهُ**» وقال: «**ولا تَكَلَّمْ بكلامٍ تعتذِرُ منهُ**»، وهذا وصية مهمة

جدًا، تجعل العبد يقف مع نفسه كثيرًا قبل أن يقول أو يعمل أي شيء، فيُحاسِبُ نَفسَهُ ويسألها قبل أي عمل: هل هذا العمل مناسب؟ هل سيُحرجني فيما بعد لأضطر إلى الاعتذار؟ فمعنى الحديث: لا تعمل عملاً بشكل مُتسرِّع يضطرك إلى الاعتذار للآخرين.

مثال ذلك: أن تتسرع فتحكم على فلان ثم يكون بريئًا، فتضطر إلى الاعتذار له.. أو تدعوك نفسك إلى التأخر عن العمل، فتتذكر الاعتذار والإحراج أمام المدير، فتقول لنفسك: بادري «**وإيَّاكَ وما يُعتَذرُ منهُ**».. فالتأني ضرورة في حياتنا..

هذا في أمر الدنيا، أما الإحراج والندم يوم القيامة فهو أشدّ، عندما يجد الإنسان معاصيه أمامَه مُسَجَّلة لا تُغادر صغيرة ولا كبيرة، فـ «**وإيَّاكَ وما يُعتَذرُ منهُ**» في الدنيا أو في الآخرة.

وصية نبوية

جاء رجُلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ، علِّمْني وأوجِز، قال: «**إذا قُمْتَ في صلاتِكَ، فصَلِّ صلاةَ مُودِّعٍ، ولا تَكَلَّمْ بكلامٍ تعتذِرُ منه، وأجمِعِ اليَأْسَ عمَّا في أيدي النَّاسِ**» (أخرجه ابن ماجة).

❖❖❖

32

في غزوة الطائف، حاصرها النبيُّ ﷺ حصارًا شديدًا مُدَّةَ شهر كامل، لكنها لم تُفتح لمناعة حصونها، فقرَّر أن يتركها، فقال الصحابة: "يا رسول الله، أحرقتنا نِبال ثقيف"، فادع الله عليهم"، فقال ﷺ: «**اللهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا**» (رواه الترمذي).

إن المتأمل في سيرة النبي ﷺ ومواقفه –حتى مع أعدائه– ليُدرك عظمة أخلاقه، ونُبل صفاته، ولا يستغرب أفعاله، فهو أحلم الناس وأكثرهم عفوًا، وكان حلمه عجيباً يفوق الحد الذي يتصوره الإنسان، خاصة وأن عفوه كان مع القدرة على البطش والانتقام، لكنه ﷺ كان يقول عَمَّن آذاه وأساء إليه: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»، ويقول: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا**».. فعلاً؛ لقد أدهش العالمَ في تعامله مع أعدائه وهو متمكّن منهم، فلم يظهر في التاريخ أرحم منه مع أعدائه رغم ما كان يلاقيه منهم من الأذى، متمثلا بشعار (العفو عند المقدرة)..

وفي هذا الحديث نرى أن الحرب مشتعلة، والحصار مستمرٌّ منذ شهر، وقد أعيي المسلمين، إلا أنه ﷺ أظهر أصله الكريم، ورحمته التي أرسله الله بها إلى كل العالم: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء:107).. وكان يقول: «**إنَّما أنا رحمةٌ مُهداةٌ**» (الحاكم)..

أما نحن؛ فماذا يُمكن أن نستفيد في حياتنا العملية من هذا الحديث؟

نستفيد وجوب أن نقتدي بحبيبنا، ونملأ قلوبنا رحمة ولُطفًا بالآخرين، حتى وإن كان بيننا وبينهم إشكاليات، حتى ولو تخاصمنا على قطعة أرض، أو على كلمة قالها أحدٌ، حتى لو قاطعك أخوك أو جارك أو زميلك في العمل، حتى لو اختلفتم في الرأي على مسألة ما، حتى لو تنافستم في التجارة أو العمل.. فلا ينبغي أن نرمي الرحمة والحق والعدل والقِسط جانبًا، ونستبدلها بالحقد والغِل والغيبة والاتهام وشيطنة الآخرين وتشويه صورتهم.

هذه حقيقة؛ إذا انتُزعت الرحمة من القلب فلا بُد أن يحل محلها كل حقد، الذي يتحول إلى الظلم وعدم العدل، سواء في الفعل أو القول، لهذا أمرنا ربُّنا تبارك وتعالى فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ**﴾، ثم نهانا نهيًا شديدًا مع

تهديد ووعيد: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** (8)﴾ (المائدة).

والله! إنه لمن أسوأ الصفات أن تكره أخاك لمجرد اختلاف في الرأي، أو حتى على مسائل دنيوية زائلة، وهذا دليل على ضعف الإيمان، حيث يبدأ بتتبع عوراتهم، وبفبركة الصّور والفيديوهات ونشرها على وسائل التواصل، ويكتب المقالات والكلمات التي تقطر حقدًا وكذبًا، وهو أخوك في الدين، أو أخوك في الوطنية، أو أخوك في الإنسانية.. وليس عدوك.. فما أعظم أن تكون أخلاقُكَ أنت سببًا لهداية خصمك إلى الحق !!

حقيقة

كان همّ النبي ﷺ هداية الناس، لا الانتقام، فما انتقم لنفسه قط، بل كان قدوة في كل شيء، حتى مع أعدائه كان وفيًّا أمينًا، حرصًا على هدايتهم: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (التوبة: 128).

❖❖❖

33 يقول سوَيْدِ بنِ قيسٍ رضي الله عنه: "جلَبتُ أَنا ومَخرفةُ العبديُّ بِزًّا (جمع بِزّة وهي الملابس) من هَجرَ (اسم مدينة)، فجاءَنا رسولُ اللهِ ﷺ فساومَنا سراويلَ، وعندَنا وزَّانٌ يزِنُ بالأجرِ، فقالَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ: «**يا وزَّانُ زِن وأرجِحْ**» (أخرجه النسائي).

من طبيعة البشر أنهم يُحبون أخذ حقوقهم، والنقص من حقوق غيرهم، ولهذا جاء الإسلام ليُصلح هذه القلوب، ويوجهها إلى الحق والعدل، ويصرفها عن الظلم والجور.. الإسلام أمرك أن تُطالب بحقوقك، ولكن ليس على حساب إنقاص حقوق الآخرين، فبالدِّين تَصلُح القلوب، وتَعمر العقول، وتستقيم النفوس..

وفي هذا الحديث تظهر أخلاق حبيبنا ﷺ العظيمة مرة أخرى؛ ليكون قُدوة لأمته في كل زمان ومكان.. فقد زاد ﷺ في الثَّمن كرمًا وفضلاً، ولا غرابة فهو أوفى الناس، وأكملهم سماحة، في معاملاته، يوفي بالثمن ويزيد.. حيث اشترى سروالاً أو (بنطالاً)، ولما أراد أن يدفع ثمنه قال لصاحب الميزان: أعطِهِ زيادة على الثمن. وقد كانوا في زمانهم يتعاملون على الغالب بالنقود وزناً، لذا تجد في كثير من الأحاديث: "فوزن له أوقية"، "فباعه بخمس أواق"... وقد حدد النبي ﷺ مقدار الزكاة فقال: «**ليس فيما دون خمس أواق صدقة**» (متفق عليه)، وكان ﷺ إذا أعطى وَزَنَ وأرجح، يعني زاده أكثر مما يستحق.

هل تعرفون ما هو خُلُق الكرم؟؟ مثلاً؛ إذا اشترى إنسان بضاعة بألف، وأعطى صاحبها ألفًا، فهل هذا كَرَم؟؟ لا.. الكرم هو أن تُعطي أكثر مما أخذت، أو تُعطي من دون مقابل.. لهذا كان من أسماء الله تعالى وصفاته (الكريم)، فهو الذي يُكرم عباده ويُعطيهم بلا مُقابل، وهو الذي يجزي على العمل القليل الأجر الكثير، فإذا كانت تسبيحة تملأ الميزان.. وابتسامة لا تُكلف شيئًا تُساوي صدقة.. ومجرد الهمّ والتفكير في عمل خير تُكتب حسنة.. أي كرمٍ هذا؟ إنه صاحب الكرم المُطلق جل وعلا..

وكان النبي ﷺ كريمًا، فقد نقل لنا الصحابة مشاهد كثير من كرمه، فقد "كان أجود بالخير من الريح المرسلة"، يقول أنس رضي الله عنه: "ما سُئِلَ رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا

أعطاه، فجاءه رجلٌ فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم، أسلموا، فإن محمدًا يُعطي عَطاءَ من لا يخشى الفاقة" (أخرجه مسلم).

يُهمنا هنا: كيف نستفيد في حياتنا العملية من هذه الأحاديث.. يُهمنا أن نُثبت حُبَّنا لربِّنا تبارك وتعالى، ولرسول الله ﷺ عن طريق التخلق بخُلُقه، فلن يَضُرّك دينارًا زيادة تدفعه، لتتألف به القلوب، وتُحبب الخالق بك، وتستجلب حُب الناس إليك، فإن الناس مجبولة على حُب من أحسن إليها، كما قال أبو الفتح البستي رحمه الله:

أحسِنْ إلى النّاسِ تَستَعبِدْ قُلوبَهُمُ *** فطالَمَا استبَعدَ الإنسانَ إحسانُ

ولعل هذا التصرُّف منك يكون سببًا في هداية إنسان، أو دخوله في الإسلام، أو لعل فعلك هذا يدفع التاجر إلى الصدقة والإحسان إلى الناس، فتأخذ مثل أجره..

تنويه مهم

"أمر النبي ﷺ الوَزَّان أن يُرَجِّح كفة الميزان، وليس معنى ذلك: أنها تميل ميلًا عظيمًا، فهذا قد يكون فيه ضرر على البائع، لكن يميل الميزان ميلاً يسيراً، بحيث يتحقق أن المشتري والبائع قد أخذ كل منهما حقه من غير نقص".

❖❖❖

34 أَعطَى النَّبِيُّ ﷺ عُروَةَ البَارِقِيّ رضي الله عنه دِينَاراً يَشتَرِي بِهِ أُضحِيَةً، أَو شَاةً، فَاشتَرَى شَاتَينِ، فَبَاعَ إِحدَاهُمَا بِدِينَارٍ، فَأَتَاهُ بِشَاةٍ وَدِينَارٍ، فَدَعَا لَهُ بِالبَرَكَةِ فِي بَيعِهِ، فَكَانَ لَوِ اشتَرَى تُرَابًا لَرَبِحَ فِيهِ" (أخرجه البخاري).

أخذ العلماء من هذا الحديث فوائد كثيرة، كجواز المضاربة، والتوكيل في البيع، وما أسموه "بيع الفضوليّ" وشرائه إذا أجازه صاحب المال... إلى آخره من الفوائد، لكني سأقف عند مسألة أخرى، وهي دعاء النبي ﷺ لعروة بالبركة في بيعه وشرائه، فكان "لو اشترى ترابًا لربح فيه"، وهذا للمبالغة في البركة في التجارة والربح.

وقد سبق وقُلنا أن النبي ﷺ كان دائمًا وأبدًا يربط أصحابه وأمته كُلها بالله تعالى، في كل أحوالهم وأوقاتهم؛ لِيُرَسِّخ الروابط الإيمانية في قلوبهم، ويجعل حياتهم مُطابِقةً تمامًا لما أراد الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**﴾ (الأنعام:162). وقد استخدم لذلك كل الأساليب، ومنها: الدُّعاء لهم على مسامعهم، فالمجاهد في سبيل الله كان يدعو له، والمسافر كان يدعو له ويطلب منه الدعاء، والمريض كان يدعو الله له، وإذا زاره زائر دعا الله له، وإذا أسلم أمامه شخص دعا الله له، والمُحسن كان يدعو له بالقبول، والمسيء يدعو الله أن يهديه، في السَّراء كان يدعو، وفي الضراء كان يدعو.. حتى أعداءه كان يدعو الله لهم، ليُعلِّم البشرية كُلها أنه لا نافع ولا ضارّ ولا مُعطي ولا هادي ولا شافي ولا رازق؛ إلا الله وحده، فترتبط قلوبهم بحب ربِّهم.

وفي هذا الحديث؛ حتى التاجر يدعو له؛ ليُعَلِّمَهُ أن الرزق من الله، والبركة من الله، والتوفيق في التجارة والبيع والشراء والمعاملات إنما هي من الله تعالى، فاحرص أن تكون تجارتك كما أراد ربُّك، وليكن بيعُك وشراؤكَ ومعاملاتُك مع أهلك وأقاربك وإخوانك المسلمين كما أراد ربُّك..

واعلم -أيها الغالي- أن للدعاء آثار عجيبة في الناس، حيث ينمي ويزيد الإيمان في قلوبهم، فترتقي النفوس وتتشوف إلى طاعة الله، وتَصلُح الأعمال.. والأمثلة على ذلك لا تكاد تُحصى، من سيرته ﷺ ومن حياتنا أيضًا، فهذا أبو محذورة الجُمَحي شاب من قريش

سمع الصحابة يؤذنون وهم عند النبي ﷺ فصار يستهزئ بالأذان ويُقلدهم، فناداه النبي ﷺ، وهو يظن أن النَّبي سيقتله، فدعاه إلى الإسلام، ومسح على ناصيته ودعا له، يقول رضي الله عنه: "فامتلأ قلبي -والله- إيماناً ويقيناً وعلمت أنه رسول الله"... ثم عيَّنه مؤذنا في الكعبة.. انظروا كيف انقلبَ قلبُهُ إلى الحق، ببركة الدُّعاء.. هذا مثال واحد..

نستفيد من هذا الحديث التطبيق العملي لسنة النبي ﷺ في الدعاء لأنفسنا وأهلينا وإخواننا وأحبابنا، فلنجاحك في حياتك: توجه إلى الله ربَّك بيقينٍ وإخلاصٍ وادعُ لنفسك، ولتوفيق أولادك؛ ادعُ لهم، ولإصلاح بين متخاصمين؛ ادعُ لهما، ولنجاح تجارتك وعملك احرص على الدعاء بالتوفيق.. ولهداية عاصٍ ادعُ له...

وإياك أن يخدعك الشيطان، ويُثير فيك الغضب ويدفعك إلى الدعاء عليهم، فقد تندم حيث لا ينفع ندم، يقول ﷺ: «**لا تدْعوا على أنفسِكم، ولا تدْعوا على أولادِكم، ولا تدْعوا على خَدَمِكم، ولا تدْعوا على أموالِكم، لا تُوافقوا من اللهِ ساعةَ نيْلٍ فيها عطاءٌ فيُستجابَ لكم**» (أخرجه مسلم).. فقد دَعَت امرأة على ابنها: الله لا يوفقك!! فَطُرِدَ من عَمَلِه في ذات اليوم..

كن على يقين

قال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ (البقرة:186).

❖❖❖

35 يقول النبي ﷺ: «**مَرَرتُ ليلةَ أُسريَ بي على قومٍ تُقرَضُ شِفاهُهم بمَقاريضَ مِن نارٍ، قلتُ: ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء خُطباءُ مِن أهلِ الدُّنيا، كانوا يَأمُرونَ النَّاسَ بالبِرِّ، ويَنسَوْنَ أنفُسَهم وهُم يَتلونَ الكِتابَ، أفلا يَعقِلون؟**» (أخرجه أحمد).

هذا تهديد نبوي خطير جدًا، لكل من يأمر الناس بالخير وأعمال البِرّ؛ لكنه يُخالف فعلُهُ قولَه، أتدرون لماذا؟ لأنه يجمع بين صفة الكذب، وصفة الغشّ للناس، وهذا الذي جعلني أدرج هذا الحديث ضمن هذه الباقة النبوية، فليس المقصود بالخطباء هنا هم (المشايخ) وحدهم.. فخلال معاملاتك مع الناس ينبغي أن تكون صادقًا، ولا تقول إلا الحق، فالذي يُشجع الناس على شراء بضاعة كذا، ويعمل دعاية كبيرة لها لأجل المال، وهو يعلم أنها ليست جيدة، بل لو أراد أن يشتري لنفسه وبيته لما اشترى من هذه النوع، يدخل ضمن هذا الحديث النبوي.. وحين يقف المُرَشَّح أمام الناس ليخطب خُطبة عصماء عن نواياه وأهدافه الانتخابية، وهو في قرارة نفسه يعلم علم اليقين أنه لن يُحقق ربع وُعوده؛ يدخل ضمن هذا الحديث النبوي.. والذي يوقع على إنشاء لجنة لمكافحة الفساد، وهو أول الفاسدين؛ يدخل ضمن هذا الحديث.

ألم تلاحظوا قوله ﷺ: «**هؤلاءِ خُطباءُ من أهلِ الدُّنيا**»؟ نعم.. إنهم من أهل الدنيا الذين تشربتها قُلوبُهُم، وأصبحت عندهم أهم من الآخرة، يُرضون الناس بسخط الله، أما من يُحب الله تعالى، ويسعى إلى الاقتداء برسوله، فيؤثر الآخرة على الدنيا، ولا يقبل أن يُسخط الله برضا الناس، وما أحسبك –أيها الغالي– إلا منهم.

ثم؛ هل تعلم أن هذه الصّفة من صفات اليهود؟ نعم، فالله تبارك وتعالى خاطب بني إسرائيل فقال: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ (البقرة:44)، حيث قرؤوا كتابهم، وفهموه وعلموا ما فيه، لكنهم حرَّفوه وخالفوه استجابة لأهواء أنفسهم، وخُتمت الآية بقوله تعالى بالسؤال: ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾؟ فلو كان عندهم ذرة عقل أو فهم لفضلوا ما يُريده ربُّهم على أهواء أنفسهم، ولَعَمِلوا لإرضائه وما خالَفُوه.

وأختم بقوله ﷺ: «**يؤتى بالرَّجلِ يومَ القيامةِ فيُقي في النَّارِ، فتندلق أقتابُ بطنِه، فيدورُ بها كما يدورُ الحمارُ في الرَّحا، فيجتمعُ إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تك تأمرُ بالمعروفِ وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى كنت أمرُ بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه**» (متفق عليه).

عافانا الله وإياكم.. وجعلنا من أهل الإيمان والتقوى، ومن أهل أصحاب القلوب السليمة النَّقيَّة..

خطاب لأهل الإيمان

نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين عن التناقض بين القول والعمل، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ** (2) **كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ (سورة الصَّف).

❖❖❖

36 يقول أبو بكرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه: "أيُّها النَّاسُ إنَّكم تقرؤُون هذه الآيةَ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ (المائدة:105)، وإنِّي سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إنَّ النَّاسَ إذا رأَوْا ظالمًا فلم يأخُذوا على يدَيْه أوشك أن يعُمَّهم اللهُ بعقابٍ**» (أخرجه أبو داود)..

أسلوب تعليم للأمة، من صِدّيق الأمة، يُخبرنا أن كثير من الناس يفهمون هذه الآية خطأً: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾، يفهمون أنها تقول لهم: لا أحد يتدخَّل في الآخر، اتركوا الناس وشأنهم وليفعلوا ما يشاءوا، واهتموا أنتم بأنفسكم فقط، ثم يقول رضي الله عنه: وإنِّي سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إنَّ النَّاسَ إذا رأَوْا ظالمًا فلم يأخُذوا على يدَيْه أوشك أن يعُمَّهم اللهُ بعقابٍ**»، والمقصود: أنكم يجب عليكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاولة إيقاف الظالم عن ظُلمه، ودعوته إلى الامتثال لشرع الله بعدم ظلم الآخرين، سواء في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم.

طيب؛ قد يسأل سائل: إن معنى الآية صحيح! فكيف نكونُ قد فهمناها خطأً؟!

الجواب: صحيح أن هذا معنى الآية الظاهر، لكنها نزلت في قومٍ كان النبيّ ﷺ والصحابة قد دعوهم إلى دين الله، وأمروهم بالمعروف والتوحيد، لكنهم رفضوا وأصروا على شركهم، ولم يَقبلوُا الدعوة والنصيحة، فتضايق الصحابة، وكادت أنفُسهُم تَذهبُ علَيهِم حَسرةً؛ لأن إخوانهم وقراباتهم لم يُسلموا، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ تلكَ الآيةَ استِرضاءً لهم، وتخفيفًا عنهم.. فالإنسان المؤمن الصادق الصَّالح لا يُحب أن يرى إخوانه عاصين لله تعالى، ظالمين لغيرهم؛ لأنه يُحب لهم الخير، صحيح أنه لا يضره، ولا يُنقِص مرتبته عند الله، لكن قلب المؤمن يُحب الخير لكُل الناس حتى للمخالفين، فكيف بأحبابه؟!

خُلاصة القول في الحديث: لا ينبغي لمسلم أن يقبل الظُّلم، لا أن يظلم الناس هو، ولا أن يظلمه الناس، لقوله ﷺ: «**انْصُرْ أخاكَ ظالِمًا أوْ مَظْلُومًا**». فقالَ رَجُلٌ: يا رَسولَ اللهِ

أَنْصُرُهُ إذا كانَ مَظْلُومًا، أفَرَأَيْتَ إذا كانَ ظالِمًا، كيفَ أنْصُرُهُ؟ قالَ: «**تَحْجُزُهُ** -أوْ تَمْنَعُهُ- **مِنَ الظُّلْمِ؛ فإنَّ ذلكَ نَصْرُهُ**» (أخرجه البخاري).

فينبغي لكل مُسلم أن يَصرف نفسه وإخوانه عن الظلم، حتى يلقوا الله وليس في رقبتهم ظُلمًا لأحد، أن كان قادرًا، وتكون المصلحة في ذلك أكبر من المفسدة، لقوله ﷺ يقولُ: «**ما من قومٍ يُعمَلُ فيهم بالمعاصي، ثمَّ يقدِرون على أن يُغيِّروا، ثمَّ لا يُغيِّروا إلا يوشِكُ أن يعُمَّهم اللهُ منه بعقابٍ**» (أخرجه أبو داود).. ويكون ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، وبطريقة حكيمة، وأسلوب حسن مناسب، وانصح لهم نصحًا حسنًا، يرغبهم في الخير، ويمنعهم من الظلم، وجادلهم بأحسن طرق المجادلة مع الرفق واللين: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (النحل:125).

دعاء نبوي

« **اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بك من الفقرِ والقِلَّةِ والذِّلَّةِ ، وأعوذُ بك من أن أظلِمَ أو أن أُظلَمَ**» (أخرجه أبو داود).

❖❖❖

37 قالَ رسولُ الله ﷺ: «**المُؤمِن الْقَوِيُّ خيرٌ وَأَحبُّ إلى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا ينْفَعُكَ، واسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجَزْ**» (أخرجه مسلم).

ليس معنى «**المُؤمِن الْقَوِيُّ**» هنا صاحب العضلات، الذي يتفاخر بها، و(يتشاطر) على الناس، ويستخدمها لأكل حقوق الآخرين بالقوة، ولا قوي العقل والذكاء الذي يستخدمه في التحايل على الشرع وعلى الناس، ولا صاحب قوة المال الذي يستغله لرشوة الحُكام والقُضاة والموظفين، ويدفع لعامة الناس كي يُصَوِّتوا له في الانتخابات... كلا.. فأمثال هؤلاء ليسوا أحب إلى الله، فقوله ﷺ: «**المُؤمِن الْقَوِيُّ**» لها معنيان:

الأول: القوة المادية، أن يكون قويًا في جسمه، أو سُلطانه، أو ماله، أو في بلاغته وقدرته على الإقناع، أو يُبدع في أي مجال من مجالات الحياة؛ لكنه يستخدمه في ما يُرضي الله تبارك وتعالى، وإلا كيف سينال الخيرية ومحبة الله وهو يقول ويفعل ما تستهويه نفسه مما يُسخط ربَّه ويُغضبه؟ اسمعوا لهذه القصة:

كان النبيُّ ﷺ وأصحابه جالسون، فَمَرَّ رجلٌ ذو جسم قويّ ونشيط، فقالوا: "يا رسولَ اللهِ؛ لو أنه يستخدم قوته في الجهاد في سبيل الله!! فقال ﷺ: «**إنْ كان خرج يسعى على ولدِه صغارًا فهو في سبيلِ اللهِ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيلِ اللهِ، وإنْ كان خرج يسعى على نفسِه يعفُّها فهو في سبيلِ اللهِ، وإنْ كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو في سبيلِ الشيطانِ**» (أخرجه الطبراني).

فالقوة المحمودة هي من يستخدمها صاحبها في ما يُرضي الله، من الأقوال والأفعال، سواء من أمر الدنيا أو أمر الآخرة: يستخدم جسمه في العبادات، وفي الجهاد في سبيل الله، وفي نفع الآخرين، كما يستخدم جاهه وسُلطانه في العدل والإنصاف وتطبيق شرع الله، ويستخدم جيوشه في الدفاع عن دين الله وعن أرض المسلمين.. يستخدم ماله في الإصلاح بين الناس، وتجنيب الفقراء مذلة السؤال، ويستخدم قوة عقله وذكائه في التخطيط لمستقبل شباب الأمة وفي العلم والتعلُّم والتعليم... الخ.. فهذا خير وأحب إلى

الله من الذي لا يستطيع أن يفعل ذلك، وإن كان في كُل خير، وكلهم يعمل بقدر استطاعته، وبقدر قوته.. فالقوة المادية في الجسم أو المال أو السلطان يُمكن أن تكون خيرًا لصاحبها إذا أطاع الله فيها، أو تكون وبالاً عليه إذا استخدمها في المعصية.

أما المعني الثاني، فهو معنوي، والمقصود به قوة الإيمان؛ لأنه قال: «**المؤمن القوي**» يعني: المؤمن قوي الإيمان، فكلمة القوي تعود إلى الإيمان، والمؤمن القوي يدفعهُ إيمانه إلى أن يقوم بما أوجب اللهُ عليه، كما يزيد من النوافل، أما ضعيف الإيمان فيكون مُقصرًا، لهذا فالأول خير وأحب إلى الله تعالى.

وقد قال ﷺ: «**وفي كلٍّ خيرٌ**»؛ لئلا يتوهم أحدٌ من الناس أن المؤمن الضعيف لا خير فيه، بل المؤمن الضعيف فيه خير، وفيه نفع للأمة، لكنه يحتاج إلى من يُذكّره ويُعينه ويُقدّم له الدعم والمُساعدة، فبعض الصحابة، أقوياء، ويستطيعون الجهاد، لكنهم ليس لديهم العُدة والأدوات، ولم يجد النبي ﷺ ما يحملهم عليه، فـ ﴿**تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ**﴾ (التوبة: 92)، وهم أقوياء وبهم طاقة.

وفي المقابل؛ اسمعوا إلى قصة أُخرى: هذا عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال له النبي ﷺ: «**يا عَمرُو، إنِّي أُريدُ أن أَبعثَك على جَيشٍ فيُغنِمَك اللهُ، وأَرغَبَ لك رغبةً منَ المالِ صالحةً**»، فقال عمر الزاهد الصادق: إنِّي لم أُسلِمْ رغبةً في المالِ، إنَّما أَسلَمْتُ رغبةً في الإسلامِ، فَأكونَ معَ رَسولِ اللهِ، فَقال: «**يا عمرُو، نِعْمَ المالُ الصَّالحُ للمَرءِ الصَّالحِ**».

ولنا إن شاء الله تعالى- في آخر هذه الباقة من الأحاديث وقفة أخرى مع الظالم والمظلوم، فسنلتقي هناك، بإذن الله.

سؤال

هل تعلم -أيها الغالي- حديث (أهل الدُّثور)؟

ابحث عنه وتأمَّلهُ، ففيه فوائد عظيمة، وعظات جليلة.

❖❖❖

38 قال رسول الله ﷺ: «**مَن ردَّ عن عِرضِ أخيه ردَّ اللهُ عن وجهِه النَّارَ يومَ القيامةِ**» (أخرجه الترمذي)، وفي رواية: «**مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرُدَّ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» (أخرجه أحمد).

في أثناء الجلسات، والسَّهرات، والقعدات، والحوارات والمكالمات الهاتفية؛ يأكل الكثير منا لحوم أخوتهم من المسلمين بالغيبة أو البُهتان، سواء كان محقًا في كلامه أم لا، وهذه من الجرائم الكبيرة في الإسلام، والتي ذُكرت في القرآن الكريم لخطرها، قال تعالى: ﴿**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾ (الحجرات: 12)، ووضع لها عقوبة شديدة، قال ﷺ: «**لَمَّا عُرِجَ بي مَرَرْتُ بِقومٍ لهُمْ أَظْفَارٌ من نُحاسٍ، يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وصُدُورَهُمْ، فقُلْتُ: مَنْ هؤلاءِ يا جبريلُ؟ قال: هؤلاءِ الذينَ يأكلونَ لُحُومَ الناسِ ، ويَقَعُونَ في أَعْرَاضِهِمْ**» (أخرجه أبو داود).

لأجل هذا؛ أمر الإسلام كُل من يسمع غيبة أن يَرُدّ عن عرض أخيه الذي يغتابونه ويتحدثون عنه بسوء في جلستهم، ورتَّب على ذلك جائزة كبيرة، وهي: أن يحميه الله من النار يوم القيامة، وهذه الجائزة يسعى إليها كل مسلم، حيث اعتقد العقيدة الصحيحة؛ حتى يحميه الله من النار.. وقام بالعبادات كما أراد الله؛ حتى يحميه من النار.. وقاوم شيطانه وشهوات نفسه؛ لأجل أن يحميه الله من النار.. وأنفق من ماله ووقته وجُهده؛ لأجل أن يحميه الله من النار.. فهاهي هذه الجائزة أتت إليك تسعى، بعمل واحد، وهو أن تُدافع عن أخيك في غيبته أمام كل من أراد أن يتحدث عنه بسوء.

بل إن أجر هذا العمل يكون في الدنيا قبل الآخرة، وركزوا في هذا الحديث جيدًا وتدَبَّرُوه، قال رسول الله ﷺ: «**مَنِ اغْتِيبَ عِنْدَهُ مُؤْمِنٌ فَنَصَرَهُ**» دافع عنه، وحاول منع المغتابين: «**جَزَاهُ اللهُ بِهَا خَيْرًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**» يا الله ما أعظمه من جزاء!! ثم يُكمل الرسول ﷺ: «**وَمَنِ اغْتِيبَ عِنْدَهُ مُؤْمِنٌ فَلَمْ يَنْصُرْهُ جَزَاهُ اللهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ شَرًّا**» عافانا الله وإياكم، ثم ماذا؟ «**وَمَا الْتَقَمَ أَحَدٌ لُقْمَةً شَرًّا مِنَ اغْتِيَابِ مؤمن**» (الأدب المفرد)، لا يوجد أشر من هذا الطعام الخبيث: الغيبة..

ويَشتدُّ أجْرُ من حمى عِرض مُسلمٍ في غيابه إذا كان المغتاب معروفًا بنفاقه أو كذبه، أو افترائه على الناس، أو خيانته لدينه ووطنه وأهله، اسمعوا إلى الحبيب ﷺ وهو يقول: «**مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ**» أُرَاهُ قَالَ: «**بَعَثَ اللهُ مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ**» أمَّا عقوبة المغتاب، فيُكمل الحديث: «**وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ، حَبَسَهُ اللَّهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ**» (أخرجه أبو داود).

انظروا قوله ﷺ: «**يُرِيدُ شَيْنَهُ**» يعني يهدف إلى تحقيره وتشويه صورته أمام الناس، أو في وسائل الإعلام، أو في الكتب والروايات، أو الجرائد والمجلات، فهو يستحق العقوبة التي في الحديث: «**حَبَسَهُ اللهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ**» حتى يتوب بصدق، ويعتذر من أخيه ويستسمح منه..

ولنا في صحابة رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فحينما تخلف كعب بن مالك رضي الله عنه عن غزوة تبوك، وتفقده ﷺ، فقال: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حَبَسَهُ بُرداهُ والنظر في عِطفيْه (يقصد انشغل بالدنيا عن الجهاد). فقام معاذ بن جبل رضي الله عنه وقال: بئسَ ما قلتَ، والله يا رسول الله ما علمنا عنه إلا خيرًا..

يا الله.. "ما عَلِمنَا عنه إلا خيرا".. هذه الجملة التي غابت عن مجالسنا ولم نسمعها، فلو تعلمنا هذه العبارة وعلمناها للآخرين.. فكن أيها الأخ الغالي من المدافعين عن إخوانك لتنال أجرًا عظيمًا، ولا تكن من الطرف الآخر فتخسر.. اللّهُمَّ فهّمنا..

رواية أخرى

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رضي الله عنها: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ ذَبَّ عَنْ لَحْمِ أَخِيهِ فِي الْغِيبَةِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ**» (أخرجه أحمد).

❖❖❖

39 قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَجِيبُوا الدَّاعِيَ، وَلا تَرُدُّوا الْهَدِيَّةَ، وَلا تَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ**» (الأدب المفرد).

في هذا الحديث ثلاث نصائح نبوية عظيمة، ترتقي بمبدأ الإحسان في التعامل بين الناس، وتفتح القلوب، وتنشر المحبة في المجتمع، وسنقف مع ثلاثتها تباعًا.

أبدأ بأول نصيحة: «**أَجِيبُوا الدَّاعِيَ**»، يعني: إذا دعاك أحدٌ إلى أي شيء يَخُصُّه؛ فلا (تكسفه)، ولا تمتنع عن زيارته أو عن تلبية دعوته، فإن العَلاقات والمعاملات بين الناس تَقومُ على المودَّة والتراحُم والتَّواصُلِ، فهذا يُفرِح أخاكَ المسلم، ويفتح لك قلبه، بحيث تُشعره بأهميته ومنزلته عندك، سواء كانت الدعوة إلى وليمة أو مناسبة ما، أو اجتماع عائلي، أو حتى جلسة سهرة، لدرجة أن النبي ﷺ جعل إجابة الدعوة من حقوق المسلم على أخيه، والحق واجب الأداء. لكن؛ هناك عدة ملاحظات ينبغي مراعاتها:

1- أن لا يكون في مكان الدعوة منكرات، فإن كان هناك منكرًا وتستطيع إزالته؛ فاحضر بهدف: إجابة الدعوة، وتغيير المنكر، وإلا فإنه يَحرُم الحضور.
2- أن لا يكون الداعي مجاهرًا بفسقٍ أو معصية، فإن كان حضور الدعوة سببًا في توبته فَبِهِ ونعمت، وإلا فلا ينبغي الحضور.
3- أن يكون طعام الوليمة مباحًا يجوز أكله، ولا يوجد محرمات.
4- أن لا يترتب على إجابة الدعوة إسقاط واجب، مثلاً: تكون في وقت صلاة الجمعة، أو تترك لأجلها والدك المريض، فإن تضمنت ذلك حَرُمَت الإجابة.
5- أن لا يكون فيها ضَرَرٌ عليكَ، أي نوع من أنواع الضرر؛ لأنه ﷺ قال: «**لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ**» (رواه أحمد).
6- أن لا يختص بالدعوة الأغنياء ويترك الفقراء، فإذا فعل فلا ينبغي الذهاب.

ومن المهم أن لا يعتب صاحب الدعوة إذا لم يحضر من دعاه، وليلتمس لأخيه عُذرًا، كما قلنا في الحديث رقم (31)؛ لأن لكل واحدٍ ظُروفه، وقد لا يُحب أن يَطَّلع على أحواله أحدٌ، فكم من الناس لا يذهب إلى مناسبة الأعراس لأنه لا يملك نقودًا للنقوط أو

لهدية العُرس، أو لأن لديه عمل ولا يستطيع تركه.. وكم من الناس يُحرَج من تلبية دعوة أخيه لأسباب شخصية أو خاصة به.

لهذا؛ كن أنت -أيها المسلم العزيز - المبادر إلى كل خير، وإلى نشر المحبة، حتى ولو أنفقتَ من جيبك، أو من وقتك، فإن اللهَ الكريم يقول لنا: ﴿**وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾ (البقرة: 273)، ولن يضيع عنده مثقال ذرة من أعمالنا.

تنويه مهم

يجوز قبول دعوة غير المسلم بلا خلاف بين أهل العلم، فعن أنس رضي الله عنه: "أن يهوديًا دعا رسول الله ﷺ إلى خبز شعير وإهالة سنخة فأجابه" (أخرجه أحمد)، لكن بالشروط السابقة، بالإضافة إلى شرط أن لا تكون الدعوة في مناسبة تخالف ديننا، مثل عيد قيامة عيسى عليه السلام، فهو عندنا لم يمُت حتى يقوم.

❖❖❖

40 عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قالتْ: "كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْبَلُ الهَدِيَّةَ وَيُثِيبُ عَلَيْهَا" (أخرجه البخاري).

هذه هي النصيحة الثانية في الحديث السابق، وقد طبقها النبي ﷺ عمليًا، فكان يقبل الهدية ولا يرُدها إلا لعذر، بل كان يُثيب عليها، يعني: يُقابلها بهدية، وإن لم يجد هدية دعا لصاحبها حتى يرى أنه كافأه، قال ﷺ: «**مَنْ صنع إليكمْ معرُوفًا فكافِئوه فإنْ لم تَجِدُوا ما تُكافِئوه فادعوا له حتَّى ترَوْا أنَّكُمْ كافأتموهُ**»، وقد رُوي عنه ﷺ قوله: «**إن الهدية تأخذ بالسَّمع والبصر والقلب**» (ابن أبي الدنيا)، أي" تؤثِّر في قلب المُهدى إليه.

فالهدية سُنَّة نبوية، ومَظْهر من مظاهر المحبة بين الناس، ومبعث للأُلفة والأُنْس، فتُقرِّب البعيد، وتشق طريق الدعوة إلى النفوس، وتفتح مغاليق القلوب، لذا حض عليها النبي ﷺ فقال: «**تَهَادُوا تَحَابُّوا**» (الأدب المفرد)، ولا يهم ما هي الهدية ولا قيمتها، حتى ولو كانت قليلة فهي ذات تأثير قوي، فلا تَرُدّ الهدية، قال حبيبنا ﷺ: «**لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أو كراع لَقَبِلْتُ**» (رواه البخاري)، والكُراع: عظم الساق الذي لا يوجد عليه لحم، يعني: شيئًا يسيرًا.

ومن الأَولى أن يهدي الإنسان للأقرب فالأقرب، ولمن له حقوق عليه، فالوالدان أحق الناس بالهدية في حياتهما، فهي جزء من حقهما عليه، ومهما قدم لهما فلن يوفي شيئاً من حقهما، وبعد وفاتهما يهدي إليهما الدَّعوات والصَّدقات والأعمال الصَّالحات.

والهدية بين الزوجين لها أثرٌ طيبٌ، فهي تقوي العلاقة، وتزيد المحبة والأنس، وتزيد رباط العشرة بينهما، ويا ليت الأزواج ينتبهون لها، فكم أزالت من المشاكل، وكم أبعدت من عداوة، وكم تسببت في زوال الهموم من بيت الزوجية.

ثم بعد ذلك الأقارب، وكم نرى أثر تلك الهدايا التي تقدَّم في بعض المناسبات الأسرية والتي تزيد روابط الرحم بينهم.

وكذلك بين الجيران يبدأ بالأقرب كما في حديث عائشة ﵂ عند البخاري، قالت: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي جَارَيْنِ فَإِلَى أَيِّهِمَا أُهْدِي؟ قَالَ: «**إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكِ بَابًا**»، والهدية

تختلف بحسب مقامها وزمانها، وبحسب من يستفيد منها، فلا يلزم أن تكون عينية، فقد تكون الهدية توجيهًا، أو نصيحةً أو دُعاءً، قال العلامة ابن القيم ﷺ: "الهدية النافعة: كلمة من الحكمة يهديها الرجل إلى أخيه المسلم".

وبعض الناس إذا أَهدى لأحدٍ هديةً، وحصل بينهما مشاحنة أو مشكلة ذكّره بهديته وطلب إرجاعها له، وهذا العمل لا يليق بالمسلم الذي يبتغي وجه الله فيما يُقَدِّمُهُ.

كما أنه من المستقبح أن يرجع الإنسان في هديته، قال النبي ﷺ: «**الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَقِيءُ، ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ**» (رواه البخاري).

ويجوز الإهداء وقبول الهدية من غير المسلم، ففي تبوك "أَهْدَى ملكُ أَيْلَةَ للنبي ﷺ بغلةً بيضاءَ، وكساهُ بُرْدًا"، كما قبِل ﷺ ممن طَمِعَ في إسلامه وتأليفِ قلبِهِ لمصلحةٍ يرجوها للمسلمين، وردَّ هديةَ من لم يطمعْ في إسلامه ولم يكن في قَبولها مصلحة للمسلمين.

الخُلاصة

لله در الهدية! تلك الوسيلة التي تطفئ نيران الضغائن، وتحل أعقد الأزمات والمشكلات والنزاعات، فللهدية عظيم الأثر، وجسيم الخبر في استجلاب المحبة وإثبات المودة وإذهاب الضغائن، يقول النبي ﷺ: «**تَهَادَوْا تَحَابُّوْا، نِعْمَ مِفْتَاحُ الحَاجَةِ الهَدِيةُ**» (الأمثال في الحديث).

❖❖❖

41

يقول أَبو مَسعُودٍ البَدرِيِّ رضي الله عنه: "كُنتُ أضرِبُ غُلامًا لِي، فَسَمِعتُ صَوتًا مِن خَلفي يقول: اعلَم أَبَا مَسعُودٍ... وإِذَا هُو رسُولُ الله ﷺ، يَقُولُ: **«اعلَم أَبَا مسعُودٍ أنَّ الله أقدرُ علَيكَ مِنكَ علَى هَذَا الغُلامِ»**، "فَسَقَطَ السَّوطُ مِن يدِي مِن هَيبتِهِ، فَقُلتُ: لا أضربُ مملُوكًا بعدَهُ أَبَدًا... يَا رسُول الله، هُو حُرٌّ لِوَجهِ اللهِ تَعَالَى"، فَقَال: **«أمَا لَو لَم تَفعَل لَلَفَحَتكَ النَّارُ»** أو **«لَمَسَّتكَ النَّارُ»** (رواه مسلم، باختصار).

هذه هي الوصية الثالثة، وهي من أهم الوصايا في المعاملات بين الناس، لأنها تجمع بين صفات: الكِبر، والظلم، والاعتداء، فلا يحق لأحد الاعتداء على أحدٍ فيضربه بغير وجه حق، أتدري لماذا؟ لأن الله يأمرنا ويقول: **﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾** (البقرة:190)، فإذا كان الاعتداءُ على العدو من غير وجه حقّ ممنوعًا، فما بالك بالأُخوة والأصحاب والعمال والموظفين والضعفاء؟! والاعتداء هو إلحاق الضرر بالآخرين من غير وجه حق، أو تجاوز الحد في أخذ الحق، وهو من أشد أنواع الظُّلم.. فما ينبغي لمسلم أن يكون فظًا غليظًا مُحبًا للمشاكل و(الطُّوَش)، يضرب ويعتدي على عامِلِه أو الموظف الذي عنده، أو من هُم أضعف منه، فيستقوي عليهم بحكم قوة جسمه وعضلاته، أو بحكم سُلطانه وجاهه، أو بحكم منصبه، أو بحكم عائلته الكبيرة، أو استنادًا على أبيه الذي يعمل كذا.. لا.. لا تغترّوا بقوتكم ولا بمنصبكم ولا بعائلتكم ، فإن الله أقوى عليكم منكم على هؤلاء الضُّعَفاء.

إنَّ الإسلام يرفض العدوان على الآخرين، سواء كان بدنياً أو لفظياً، ورتّب على ذلك عُقوبة، قال تعالى: **﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾** (النساء:30)، فإذا كان منع مجرد الإشارة بحديدة إلى أخيه، قال ﷺ: **«مَن أشارَ إلى أخِيهِ بحَدِيدَةٍ، فإنَّ المَلائِكَةَ تَلْعَنُهُ، حتَّى يَدَعَهُ، وإنْ كانَ أخاهُ لأَبِيهِ وأُمِّهِ»** (أخرجه مسلم)؛ فما بالكم بمن يستخدم كل وسائل القتل والتهديد؟ يقول النبي ﷺ: **«لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسِّلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار»** (أخرجه البخاري).

بِصَراحة -أيها القارئ الكريم- هذه مسألة مهمة، لأنها قد تتسبب بالقتل والدماء، وشجارات العائلات والقرى والمدن مع بعضها، فإذا أردنا أن نُقلل منها؛ يجب أن نضع رضا الله أمام أعيُننا، والاقتداء بالنبي ﷺ، فقد رأينا بسبب العناد والكِبر وحُب الانتقام ما مَنَعَ الصُّلح، مع تَدَخُّل كبار علماء البلاد ومصلحيها، فمن الضروري التعلُّم من الخطأ، والعزم على عدم تَكراره؛ فأبو مسعود رضي الله عنه استَشعَر خطأه فقال للنبي ﷺ: "والذي بعثك بالحقِّ، لا أضرب عبدًا بعده أبدًا"، ثم قال: "فما ضربت مملوكًا لي بعد ذلك اليوم".. فلنحاسب أنفُسنا، فإن في طاعة الله ورسولها عِزّها ونجاتها.

أسأل الله تعالى أن يُفهمنا، وأن يُصلح ذات بيننا.. إنه هو العَليّ القدير..

حقيقة ثابتة

جاء الإسلامُ بحفظ حقوق كلِّ فئات المجتمع، وشَدَّد في حَقِّ الضعيف؛ سواء أكان امرأة أو يتيمًا، أو فقيرًا أو مريضًا، وأمرَ بدفْع الظلم عنه، وقد قال ﷺ: «**إنَّ الله لا يُقَدِّس أمَّة لا يُعطُون الضعيف منهم حقَّه**» (أخرجه الطبراني)، وقال ﷺ: «**إني أُحَرِّج عليكم حقَّ الضعيفَيْن: اليَتِيم والمرأة**» (أخرجه الحاكم).

❖❖❖

42 قال رسول الله ﷺ: «**مَن عادَ مريضًا، أو زار أخًا في الله، ناداه منادٍ: بأنْ طِبتَ، وطاب مَمْشاك، وتبوَّأتَ من الجنة منزلا**» (رواه الترمذي).

الزيارات في الله من أهم أسباب نجاح العلاقات بين الناس، وإيجاد المحبة، والصدق في المعاملات، ومع الأسف، لضيق الأوقات وكثرة الأشغال وقلة الهمة، زَهِدنا في الاقتداء بالنبي ﷺ، فغابت عنا عبادات كثيرة، منها عبادة الزيارة في الله.. لأجل الله.. فزيارات المصلحة كثيرة.. ولقاءات العمل كثيرة.. و"اللَّت والعَجِن" في المكالمات الهاتفية تصل إلى الساعات.. لكن لما ترك الناس الزيارات لأجل الله؛ فاتهم جوائز عديدة:

الجائزة الأولى: تنال محبة الله تعالى؛ قال ﷺ: «**قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابِّين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ**» (أخرجه أحمد).

الجائزة الثانية: تذكرة لدخول الجنة؛ قال النبيّ ﷺ: «**مَنْ زَارَ أَخَاهُ صُبَابَةً إِلَيْهِ** -يعني: شوقًا إليهِ-، **وَحَدَاثَةِ عَهْدٍ بِهِ، بَعَثَ اللهُ مَلَكًا فَنَادَى: طِبتَ وَطَابَت لَكَ الْجَنَّةُ، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ اللهُ: بِرُوحِي زَارَ عَبدِي، وَعَلَيَّ قِرَاهُ، فَلَمْ يَرضَ اللهُ لَهُ بِثَوَابٍ دُونَ الْجَنَّةِ**» (رواه البزَّار).

الجائزة الثالثة: منابر من نور يوم القيامة، فالزيارات إذا كانت في الله ولأجل الله؛ تجلب المحبة بين الناس، قال ﷺ: «**قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النبيون والشهداء**» (رواه مسلم).

فينقُصنا -حقيقةً- أن نتجالس في الرحمن فيرحمنا.. وأن نتقارب لأجله فيقرّبنا.. وأن نزور بعضَنا فيفتح لنا بابه.. وأن ننفق الأوقات، فيخلفها لنا بركة في الأوقات والذرية.

ويُمكن لك -أيها الغالي- أن تزيد أجرَكَ، وترفع عند اللهِ قدرَكَ، بنوايا تضعها في قلبِكَ وعقلك، تنويها أثناء زيارة أخيكَ المسلم، منها:

أ- نية طاعة الله ورسوله؛ لأنه ﷺ كان يزور أصحابه دائمًا، قال تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾ (الأحزاب:71).

ب- نية حصولك على محبة الله تعالى بزيارتك وتواصلك مع إخوانك بزيارتهم.

ت- نية النُّصح للمسلمين، لقوله جل جلاله في الحديث القُدسي: «**حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ**» (ابن حبان).

ث- نية مغفرة ذنوبك قال ﷺ: «**إن المؤمن إذا لقي المؤمن فسلم عليه وأخذ بيده فصافحه تناثرت خطاياهما كما يتناثر ورق الشجر**» (أخرجه الطبراني).

ج- نية تنوي أن تنال دعاء الملائكة، قال ﷺ: «**ما مِن مُسلِمٍ يعودُ مُسلِمًا غدوةً؛ إلا صلَّى عليهِ سَبعونَ ألفَ مَلَكٍ حتَّى يُمْسِيَ، وإن عاد عَشيَّةً؛ إلا صلَّى عليهِ سَبعونَ ألفَ مَلَكٍ حتَّى يُصْبِحَ، وكان لهُ خَريفٌ في الجنَّةِ**» (أخرجه الترمذي).

ح- نية الحصول على رحمة الله تعالى، قال ﷺ: «**من عادَ مريضًا خاضَ في الرحمةَ، فإذا جلسَ عندهُ استَقنَع فيها** (استقرَّ فيها)، **فإذا خرج من عندهِ خاضَ في الرحمةَ حتى يرْجِعَ بيته**» (الأدب المفرد).

خ- نية مُساعدة الآخرين ونفعهم، لتُكتب من أحب الناس إلى الله، قال ﷺ: «**أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا**» (الطبراني).

د- نية قضاء حوائج الناس أيضًا، فبهذه النية يقضي الله حوائجنا، كما قال ﷺ: «**من كان في حاجةِ أخيه كان الله في حاجته**» (متفق عليه)، ورواية: «**وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يُثْبِتَهَا، أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَيْهِ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامُ**».

ذ- ومن أهم النوايا: نية ستر عورات المسلمين وحفظها، فإذا رأيت من أحدٍ في بيته إثناء زيارتكَ زلةً أو خطأً أو خللاً، فلا تفضحه، ولا تُخبر أو تُحدث عنه، وبهذه النية تحوز على ستر الله لك ولعوراتك ولزلاتك في الدنيا والآخرة، فكما تدين تُدان، وكل إنسان عنده عورات وزلات.

❖❖❖

43

يقول أَبو مَسعُودٍ البَدرِيّ رضي الله عنه: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي لَأَتَأَخَّرُ عَنِ الصَّلاَةِ فِي الفَجْرِ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا فُلاَنٌ فِيهَا، فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، مَا رَأَيْتُهُ غَضِبَ فِي مَوْضِعٍ كانَ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْهُ يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَمَنْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيَتَجَوَّزْ، فَإِنَّ خَلْفَهُ الضَّعِيفَ وَالكَبِيرَ وَذَا الحَاجَةِ**» (متفق عليه)..

مرة أخرى مع هذا الصحابي الرائع، يُخبرنا عن قصّة أخرى حصلت أمامه، حيث كان إمامٌ يُطيلُ بالناس الصَّلاة كثيرًا، فتضايق البعض، لدرجة أن أحدهم امتنع عن الحضور إلى صلاة الجماعة، ولما سمع النبيّ ﷺ القصة؛ غضبَ وحذَر الناس بشدة وقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ**».. كلمة موجزة من جوامع الكلم النبوي.

والحقيقة؛ لا يقتصر تنفير المسلمين من الدّين على هذا فقط، فقد يُنفِّر المسلمُ الناسَ من الدِّين من حيث لا يدري، فالأب -مثلاً- في تعامله مع أبنائه بشدة قد يُنفّرهم من أحكام الدين وشرائعه، وكذا المُعلم والمُربّي مع طُلابهم، وبعض الدعاة أثناء دعوته يفقد الحلم والأناة في تعامله، فيكون من أسباب الإعراض عن الدين وأهله، لذا قال الله تعالى لنبيِّهِ ﷺ: ﴿**وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾ (آل عمران: 159)، فطبّق ﷺ أمر ربه عمليًا، فكان أحلم الناس بالناس، وأرأفهم، وأمر أصحابه وأُمتَهُ بذلك، فقال: «**يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا**» (متفق عليه)، وكان من هديه ﷺ أنه ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا، كان أبعد الناس عنه..

وقد كان حبيبنا ﷺ إذا أرسل الدُّعاة إلى دين الله في أي مكان؛ يوصيهم بالتيسير على الناس والتخفيف عليهم، فلمَّا أرسل أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما قال: «**يَسِّرا ولا تُعسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا**» (أخرجه مسلم).. فمسألة تعامل الدُّعاة إلى دين الله مع المدعوين بالحكمة وبالتيسير وبيان الحُجج والبراهين والأدلة بالحكمة وبدون أي تَشَدُّد أو تشديد؛ مسالة مهمة للغاية، ولأهميتها أكَّد عليها القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (النحل:125)، ومن صُوَر التَّنْفِير عند الدعاة:

☒ تعاملهم بأسلوب فيه نوع من الشدة، والغلظة والجفوة وافتقاد الرفق واللين.

☒ الأخذ بالعزيمة وإجبار الناس عليها، والإعراض عن الرُّخَص المشروعة، مما يوقع الناس في المشقة، مع أنَّ الله تعالى يحبُّ أن تُؤتى رُخَصَهُ كما يحبُّ أن تُؤتى عزائمه.

☒ تقنيط النَّاس مِن رحمة الله، وتيئيسهم مِن التَّوبة، وذم و"بهدلة" المذنبين ونبذهم، وربَّما وصل الحال إلى الشَّتم والأذيَّة البدنيَّة، وهذا مما نهى عنها المصطفى ﷺ.

☒ تغليب الترهيب على الترغيب في الدعوة إلى الله.

☒ تنفير الأئمَّة للنَّاس مِن الصَّلاة وخطبة الجمعة أو الدروس العامة بإطالتها جدًا، مخالفين بذلك أمر النبي ﷺ بالتخفيف.

تدبروا هذه القصة: يقول أبو هريرة رضي الله عنه: "أُتِيَ النَّبيُّ ﷺ بسَكرانٍ، فأَمَر بضربه، فمنَّا مَن يضربه بيده، ومنَّا مَن يضربه بنعله، ومنَّا مَن يضربه بثوبه، فلمَّا انصرف، قال رجلٌ: ما له؟! أخزاه الله! فقال رسول الله ﷺ: «**لا تكونوا عونَ الشَّيطانِ على أخيكم**»" (أخرجه البخاري).

تَفَكَّر

انظروا بِعُمق إلى تعليل النَّبيُّ ﷺ لِنَهيِهِ عن لعن شارب الخمر بأنَّه سيكون عونًا للشَّيطان على هذا المسلم، فيزداد نفورًا، فلنتجنَّب دائمًا أن نُعين الشيطان على إخواننا وأحبابنا وزملائِنا، وأبنائنا، قال تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ (البقرة:185)، وقال النبيُّ ﷺ: «**مَنْ ضَارَّ أَضَرَّ اللهُ بِهِ، وَمَنْ شَاقَّ شَاقَّ اللهُ عَلَيْهِ**» (رواه أحمد).

❖❖❖

44 عَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: "قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا بُنَيَّ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ ، يَكُنْ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ**» (أخرجه الترمذي).

هذا الحديث يدفعنا دفعًا إلى نشر الأمن والأمان والسلامة في بيوتنا إذا دخلنا إليها، فلا يدخل الإنسانُ بيتَهُ وكأنه داخل إلى حَرب، وهذا هو ديدن المسلم أصلاً، أن ينشر الأمن والأمان في المجتمع كُله لا في بيته فقط، انظروا إلى هذا التشبيه العجيب من النبي ﷺ، يقول: «**وَالَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ لَكَمَثَلِ النَّحلَةِ أَكَلَت طَيِّبًا، وَوَضَعَت طَيِّبًا، وَوَقَعَت فَلَمْ تَكسِر ولم تُفْسِد**» (أخرجه أحمد).

تشبيه عجيب؛ فالمسلم كالنحلة التي تطوف بالحدائق والحقول، ولا تأكل إلا الطعام الطيب والرحيق الحلو، وفي المقابل تُعطي العسل الطيب، ولا يَرى أحدٌ منها إلا ما ينفع، وإذا وقعت على شيء أو في مكان ما؛ فإنها لا تؤذي أحدًا، ولا تؤذي المكان الذي وقعت فيه، وكما قيل: "المؤمن كالغيث أينما حل نفع"، نافع بعلمه وبأخلاقه وبحديثه، لا يبخل بمال أو مشورة، وإن تكلم لم ينطق إلا بخير، وان صمت كف أذاه عن غيره، وقد جاء في الحديث: «**مثَلُ أُمَّتي مثَلُ المطَرِ؛ لا يُدْرَى أوَّلُه خيرٌ أمْ آخِرُه**» (أخرجه أحمد).. والغيث أينما حَلَّ نفع، وإذا اقبل استبشر الناس به، وإذا رَحَلَ بقى أثره في الأرض.

وقال تعالى: ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً**﴾ (النور:61)، أي: انشروا الأمان والسلام والطمأنينة في البيوت التي تدخلوها، أما كلمة (السَّلام عليكم ورحمة الله) فهي مفتاح هذا الأمان، بحيث تُشعِر بها أهلك والناس الآخرين بأنهم في أمان من أي شرّ تفعله بيدك أو بلسانك، لهذا صحح النبي ﷺ بعض المفاهيم، والتعريفات التي قد نفهمها خطأً، فيقول: «**المسلِمُ: من سلمَ المسلمونَ من لسانِهِ ويدِهِ، والمؤمنُ: من أمنَهُ النَّاسُ علَى دمائِهِم وأموالِهِم، والمجاهدُ: مَن جاهدَ نفسَهُ في طاعةِ اللَّهِ، والمُهاجِرُ: مَن هجَرَ الخطايا والذُّنوبَ**» (أخرجه أحمد).. أربعة مفاهيم رائعة، ينبغي تطبيقها عمليًا، فالإنسان إذا أراد أن يكونَ مسلمًا حقًا، أو مؤمنًا حقًا، أو يأخُذ أجر الجهاد والهجرة فليطبق هذا الحديث عمليًا في حياته، وبيته أولى ما يبدأ به.

بل إن بعض المفسرين أخذوا من قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ**﴾ أنه يُستحب التسمية والتسليم حتى لو دخلتَ بيتًا لا يوجد فيه أحد، فإذا لم تجد أحدًا فسلم على نفسك؛ حتى تُشعر نفسك أنت أيضًا بالسلام والأمن والأمان والخير، يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "إذا دخلَ البيت غير المسكون فليقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين" (الأدب المُفرد).

وانظروا إلى هذا الحديث الرائع والفضل الرباني العظيم، يقول ﷺ: «**ثَلاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: رَجُلٌ خَرَجَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ، وَرَجُلٌ رَاحَ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ، وَرَجُلٌ دَخَلَ بَيْتَهُ بِسَلامٍ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**» (أخرجه أبو داود)، فإذا دخلت إلى بيتك وأنت تحمل لمن فيه الأمن والأمان والرحمة والرأفة والبركة، فإن الله تعالى يضمن أن يجعلها كلها في بيتك، فلا تحرم نفسك من هذا الكرم الإلهي العظيم.

اللَّهُمَّ ألبِس بيوتنا ومجتمعاتنا ثياب الأمن والأمان والبركة..

دعاء نبوي

يُروى عَن أَبِي مَالِكٍ الأَشعَرِيِّ رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا وَلَجَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَلْيَقُلْ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَوْلَجِ وَخَيْرَ الْمَخْرَجِ، بِسْمِ اللهِ وَلَجْنَا وَبِسْمِ اللهِ خَرَجْنَا، وَعَلَى اللهِ رَبِّنَا تَوَكَّلْنَا، ثُمَّ لِيُسَلِّمْ عَلَى أَهْلِهِ**» (أخرجه أبو داود).

❖❖❖

45 يقولُ أنس بن مالك ﷺ: "انْطَلَقَ رَسولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حتَّى سَبَقُوا المُشْرِكِينَ إلى بَدْر، وَجَاءَ المُشْرِكُونَ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**لا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنكُم إلى شيءٍ حتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ...** » (أخرجه مسلم).

نحن نعرف أسباب غزوة بدر وما حصل فيها، فلا أريد الحديث عنها، إنما أريد أن أقف عند هذا الموقف القيادي للنبي ﷺ، حيث كان دائمًا هو المبادر إلى العمل قبل أصحابه وجنوده، فكان مُسابقًا إلى الخير، في قوة العقيدة هو الأول.. وفي العبادات هو الأول.. وفي الصبر وتحمل الشدائد هو الأول.. وفي المعاملات هو الأول..

وفي هذا الحديث يُخبر النبي ﷺ جنوده أنه سيكون في مُقدمتهم، ولا أحد يتقدَّم عليه، وهم في خضم معركة، ذاهبون إلى الموت، وليسوا في نُزهة.. فالقائد لا بُدّ أن يكون السَّباق إلى العمل حتى يقتدي به مَن وراءَهُ، لهذا قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً**﴾ (الأحزاب:21). والمعنى: كن -أيها الغالي- قدوةً صالحة في معاملتك مع أبنائك أو موظفيك وكل من ينظر إليك من الناس، فالأب -مثلاً- يتأسَّى به ابنُه، وإن لم يجده قُدوة يتأسَّى بالآخرين، فلا يمكن أن يتربَّى الأولاد على الأخلاق الرَّفيعة، والمبادئ السَّامية، ولو سمعوا من والديهم مِئات النَّصائح والإرشادات، وهم يشاهدونهم وهم يفعلون عكسَ ما يقولون، ويُقال في الأمثال: عمل واحد أفضل من ألف موعظة.

فالأب الذي لسانه فاحش وبذيء، وهو يريد ابنًا نظيفَ اللِّسان، طاهرَ المقال، فهل هذا من العدل؟ والذي يُدَخِّن عند أبنائه، ولا يبالي، ولا يهتمُّ، وفضلاً عن حُرمته أو كراهته، فهو سلوكٌ سيِّئ؛ لأنَّ الابن غدًا سيدخِّن، ومَن قدوتُه في ذلك؟ إنَّه والده.

الأم موجودة في البيت، فيرنُّ الهاتف، فتقول لابنها: قل لهم: إنِّي غير موجودة؛ هل ترون أن ابنها سيكون صادقًا في كِبَرِه؟

ورئيس القسم أو المسؤول الذي يُريد موظفين منتمين للعمل، فهل يتم له ذلك إذا كان هو مهمل في شغله "مطنش" لمعاملاتهم وإجازاتهم وترقياتهم ورواتبهم؟

ويبيِّن لنا النبيُّ ﷺ خطورةَ مثل هذا الفِعل، اسمعوا لهذه القصة: يقول عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال: دعَتني أمِّي يومًا ورسولُ الله ﷺ قاعدٌ في بيتنا، فقالَت: يا عبد الله، تعالَ حتى أعطيَك، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «**ما أردتِ أن تعطيه**»؟، فقالت: أردتُ أن أعطيه تمرًا، فأراد رسول الله ﷺ أن يُرسخ مبدأ مهمًا في ذهن الغلام الصغير وأمه أيضًا، فقال: «**أما إنَّك لو لم تُعطِه شيئًا، كُتبَت عليك كَذِبة**» (أخرجه أحمد).. فكان من أعظم الدروس التي ظلّ يذكرها هذا الطفل طيلة حياته حتى حدثنا بها.

بعضُ الناس يظنُّ أنَّ الصِّغار لا يفهمون؛ فلذلك لو كذب عليهم فلا يهمُّ، والحقيقة خلاف ذلك؛ لذا على المربِّي أن يُدرك أنَّ الصغار لهم إدراك وإحساس، بل لهم مشاعر يَجب أن يراعيها ويقدرها حقَّ قَدرها حتى تؤتِي التربيةُ ثمارها.. وما أجمل أن يرى الابنُ من أبيه قدوةً حسنَة، يترجِم الآدابَ الإسلاميَّة سلوكًا حيًّا، ويعيشها واقعًا، فيكون له الأثر الإيجابي في حياتهم.

واعلم -أيها الغالي- إنَّ صلاح الأب لَيؤثِّر على الأبناء، ألم تَقرأ قولَ الله سبحانه: ﴿**وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا**﴾ (الكهف: 82)؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما: "حُفِظا بصلاح أبيهما، ولم يُذكر لهما صلاح..."؛ أي: لم يَذكر سبحانه وتعالى صلاحًا للأبناء، وإنَّما ذكر الصلاحَ للأب، فحفظ الله الكنزَ بسبب صَلاح الأب.

تنويه مهم

لقد ركَّزتُ في هذا المبدأ على الأب؛ لأنه قدوة للأبنائه من الشباب والأطفال، وإذا صلح الشباب والفتيان صَلَحَ كل المجتمع، ولا بُد، مع أنه مبدأ عام في كل راعٍ أو مسئول أو مدير ... الخ.

❖❖❖

46 قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لعن اللهُ اليهودَ؛ حُرِّمَتْ عليهم الشحومُ أن يأكلوها، فجمَّلوها فباعوها فأكلوا أثمانَها**» (متفق عليه).

ما علاقة هذا الحديث بالمعاملات بين الناس؟!

العلاقة هي في جريمة التحايل على الشَّرع وعلى أحكام الدِّين، حيث حرَّم اللهُ تعالى على اليهود شحومَ الأنعام (الغنم والبقر والإبل)، من باب الاختبار والامتحان لصِدقهم، لكنهم -كعادتهم التي لم يتركوها حتى الآن- يبحثون عن أي طريقة للتحايُل على شرع الله وعدم تطبيق أوامره، فأذابوا الشُّحوم وباعوها على أساس أنها زيتًا، وقالوا: هذا زيتٌ وليس شحمًا! كما فعلوا ذلك أيضًا لما حرم عليهم صيد السَّمك في يوم السبت، فاستخدموا الطُّرق الملتوية و(اللف والدوران) للتحايُل على أمر الله، فَنَصَبُوا شِبَاكهم يوم السَّبت وسحبوها يوم الأحد، فكانت عقوبتهم: ﴿**فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِين** (166) ﴾ وقد جاءت تفاصيل القصة في سورة الأعراف.

إنّ العقل والذكاء نعمة من الله تعالى؛ ما ينبغي أن نستخدمها في التحايُل على أوامره، كالذي "يَلِفُّ" على عشرين محاميًا ليبحث عن مُسوّغ لسرقة أرض أخيه أو جاره، أو ليجد ثغرة يَحِرُم بها شريكه من حقه، أو يمنع وصول تركة إلى أصحابها بعقود بيعٍ مُلفقة.

أو كالذي يُحَوِّل مالَه إلى عدة حسابات بأسماء مختلفة ليتهرب من دفع زكاة ماله.. ومثله التحايُل ببيع الأرض للأولاد بيعًا صوريًا ليحرم بناته من حقوقهم التي أقرَّها الله تعالى.. والتحايُل على الرشوة بأسماء برَّاقة كهدية أو بدل أتعاب أو إكرامية.. أو تحليل الخمر بأي حُجة كانت.. أو التحايُل لتحليل الربا.. أو يختار الكلمات الفضفاضة في عقود البيع والإيجار حتى يتحايل على المُشتري أو المُستأجر كما يشاء.. أو لإسقاط نفقة واجبة للزوجة أو للأولاد أو الوالدين.. أو البحث عن مُفتي (طري) على حدّ قَولَ أحدهم -يقصد مُتَسَاهِلاً في الفتوى- ، ليُفتي له بما يُخالف شرع الله، تحليلاً أو تحريمًا..

ويتبعه أيضًا التحايُل حتى لا يدخُل المُجرم والقاتل السِّجن، والتحايُل حتى على الدية وإنقاصها مُستغلين اسم الله تعالى، وكرامة النبي ﷺ، ولوجهِ فلان وعَلَّان (مع احترامنا

الشديد لكل وجوه الخير والإصلاح)، حتى قال أحدهم على مسمعي أنا: "سأفعل كذا!! وكُلها بتروح بفنجان قهوة"..

ودرج أصحاب رسول الله ﷺ على نهجه في التحذير من التحايل على الله تعالى، والتلاعب بِشَرعِهِ، فبينوا للناس ذلك وأوضحوه؛ فقد سُئِلَ أنس بن مالك وابن عباس رضي الله عنهما عن بيع العينة، فقالا: "إن الله لا يُخْدَع، هذا مما حرم الله ورسوله"، وهنا يلاحظ أنهما قد سميا بيع العينة خداعًا، وأوضحا أن الله لا يُخدَع ولا يُتَحَايَل عليه، وبيع العينة: هو بيع الشيء في مجلس واحد مرتين بثمنين مُتَباينَين.

أيها القارئ الكريم؛ لا أريد أن أُطيل كثيرًا، مع أن الموضوع مهم جدًا، لكن؛ اعلم أن كانوا اليهود -وما زالوا- يحملون لواء هذه الجريمة النَّكراء، فيبحثون عن أي فرصة للتحايل على شرع الله، أو التلاعب بأحكامه، فمن ارتكب هذه الجريمة شابَه اليهود في ذنبهم، لهذا جاء التحذير من ذلك على لسان رسول الله ﷺ، فقال: «**لا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَتِ الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ**» (إبطال الحيل).. فلا تتشبه بهم، فإن حبيبك ﷺ يقول: «**مَن تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**» (أبو داود).

الخلاصة

التحايل على أوامر اللهِ وشرعه أمرٌ منكرٌ عظيم لعن الله بسببه اليهود، ومسخهم قردة وخنازير، وفي هذا الحديث بيان بطلان كل حيلة يحتال بها الإنسان للتوصل إلى ما حَرَّمَ، أو لمنع واجب أو حق من حقوق الآخرين.

❖❖❖

47

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِالحَدِيثِ ثُمَّ التَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ**» (أخرجه الترمذي)، وفي رواية: «**إذا حَدَّثَ الإنسانُ حَديثًا، فرأى المُحَدَّثُ المُحَدِّثَ يَلتفتُ حَولَهُ، فهي أمَانَة**»، وفي أخرى: «**مَن حَدَّثَ حديثًا لا يُحب أن يُفشَا عَليهِ فهو أمانة، وإن لم يستكتمهُ صَاحبُهُ**» (الطبراني).

ارجعوا إلى الحديث وانظروا عظمة هدي النبي ﷺ في المعاملات، وفي حفظ اللسان، وعدم نشر الكلام وإذاعته بين الناس.. انظروا إلى أي درجة وصلت الأمانة.. فإذا تحدَّث أحد مع أخيه المسلم بأي حديث، ثم التفتَ يمينًا ويسارًا ليرى هل من أحد يسمع كلامه، فإذا فعل ذلك فاعلم أنه لا يُريد منك أن تذكر هذا الكلام لأحد.. وإن لم يقل له: "هذا سر"، أو "لا تُفشِ هذا الخبر"، ونحو ذلك؛ لأن الالتفات يغني عن القول، وهذا الكلام أصبح الآن في حُكم الأمانة، فلا يجوز إضاعتها بإشاعتها، ولا يجوز إضاعتها بتهديده وابتزازه بإفشاء كلامه للناس..

هذه المسألة مهم جدًا؛ لأنها تخص كل فرد من أفراد الأمة، فأفراد العائلة مُطالبون بحفظ هذه الأمانات التي تحصل في البيوت.. والجار مع جيرانه كذلك.. والمهندس مع زبائنه كذلك.. وموظفي البنوك أيضًا.. وأصحاب المهن الذين يعملون في البيوت سواء في الصيانة والتصليح والبناء، فإن للبيوت أسرار.. والعامل في المجال الصِّحي لا يجوز له أن يفشي أسرار المريض.. والمحامي.. والقاضي.. والمُصلح بين الناس.. والمستشار إذا استشاره أحدٌ في أمر ما.. فكل شخصٍ يحملُ أمانَةَ عدم نقل الحديث الذي يدور بينه وبين الآخرين، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا**﴾ (النساء:58)، وأداؤها يكون بحفظها وعدم نشرها، قال ﷺ: «**لا يتجالسُ قومٌ إلا بالأمانةِ**» (أبو داود).

ومن أهم الأمانات أنه لا يجوز تسجيل المكالمات الهاتفية إلا بعلم أصحابها، فهذا يدخل ضمن التجسس، وهو مُحَرَّم، وتَصَرُّف لا يليق بالمسلم، فالتجسُّس على هذه المكالمات وتسجيلها محرم، وهو نوع من الفجور والخيانة، لا يجوز للمسلم أن يفعله، وسيكون لنا وقفة مع التجسس في الحديث التالي وذلك لخطورته على أمن المجتمع.

قال العلماءُ: ويجوز إفشاء السِّر في حالات منها:

- ✓ في سبيل المصلحة العامة للإسلام والمسلمين: مثال ذلك، رأس المنافقين عبد الله بن سلول لمّا قال: ﴿**لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَ**﴾ (المنافقون: 8)، وسَمِعَ بذلك زيد بن أرقم، فأخبر رسول الله ﷺ بما قاله ابن سلول.
- ✓ في سبيل أداء الشهادة عند القاضي لإحقاق الحق: فقد نهى الله تعالى عن كتمان الشهادة فقال تعالى: ﴿..**وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ**..﴾.
- ✓ أن يؤدي الكتمان إلى ضرر أكبر من ضرر الإفشاء.
- ✓ أن يكون السبب الداعي للكتمان قد انقضى وزال، أو يكون صاحب السِّر قد مات، وإفشاء سره لا يكون فيه ضرر أو إساءة أو افتعال فتنة.
- ✓ ويجوز أيضاً لدفع الخطر عن نفسه أو غيره.

قال ابنُ عُثَيمين رحمه الله: "إذا حدَّثك إنسانٌ بحديثٍ، وقال: إنَّه أمانةٌ، حَرُم عليك أن تُفشِيَه لأيِّ أحَدٍ، ... فإن فعَلتَ فقد خُنتَ الأمانةَ، لكِن لو فُرِض أنَّك أخطَأتَ فخُنتَ الأمانةَ، فالواجِبُ عليك أن تتحَلَّلَ ممَّن ائتَمَنك؛ لأنَّك ظلَمتَه حيثُ خُنتَه، لعَلَّ اللهَ يهديه فيُحلِّلَك، والذي ينبغي لِمَن جاءه أخوه معتَذِرًا أن يَعذِرَه ويحَلِّلَه حتَّى يكونَ أجرُه على اللهِ عزَّ وجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿**فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ**﴾ (الشورى: 40)، ولا شَكَّ أنَّ الأماناتِ تختَلِفُ في آثارِها؛ فقد يكونُ إفشاءُ السِّرِّ في هذه الأمانةِ عظيمًا يترتَّبُ عليه مفاسِدُ كثيرةٌ، وقد يكونُ متوَسِّطًا، وقد يكونُ سهلًا" اهـ.

حديث للتدبُّر

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**» (رواه الترمذي).

❖❖❖

48 قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَن استَمَع إلى حديثِ قومٍ وهم له كارِهون، أو يَفِرُّون منه، صُبَّ في أذُنِه (الآنُكُ) يومَ القيامةِ**» (أخرجه البخاري).

هذا الحديث متعلّق بالموضوع السابق، لكني أفردته لأهميته وخطورته، بل جاء النهي عنه في القُرآن الكريم أيضًا، قال تعالى: ﴿**أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا...**﴾ (الحجرات:12)، وجعله من صفات المنافقين، فقال تعالى وهو يتحدث عن المنافقين وعن صفاتهم: ﴿**لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾ (التوبة:47)، أي: ويوجد من بينكم -أيها المسلمون- عيونًا تُراقبكم، وآذانًا تتسمَّع عليكم؛ لأجل نقل الأخبار إلى أعدائكم، وهؤلاء هم المنافقون.

والتجسس كما بينه الحديث هو: أن يستمع الإنسان لكلام الآخرين، أو يُراقب تصرُّفاتهم وأعمالهم، أو بالاطلاع على مكتوباتهم ووثائقهم وأسرارهم وما يخفونه عن أعين الناس دون إذن منهم، وهم كارهون لذلك، وقدّ شدد الإسلام في منعه لدرجة أنه أعدّ لفاعله عقوبة شديدة بأن يُصَبُّ في أذنيه الرصاص المصهور، يُعَذّب به يوم القيامة.. وهو من المعاملات السيئة التي يُعاقب الله عليها في الدنيا قبل الآخرة، فقال ﷺ: «**يا مَعشَرَ مَن آمَن بلِسانِه، ولم يدخُلِ الإيمانُ قَلبَه، لا تغتابوا المُسلِمين، ولا تتَّبِعوا عَوراتِهم؛ فإنَّه من اتَّبَع عوراتِهم يَتَّبِعِ اللهُ عَورتَه، ومن يتَّبِعِ اللهُ عورتَه يفضَحْه في بيتِه**» (أخرجه أبو داود)، فـ "كما تدين تُدان"، فمن تتبع عورات الناس وخصائصهم وأسرارهم يفضحه الله ولو كان في جوف بيته.

والتعامُل مع الناس بهذه يُوَلِّد في المجتمع الأحقاد، ويورث العداوات والبغضاء، إذ يشعر المتجسس عليه بأنه مشكوك بأمره غير موثوق، وأسوأ أنواع التجسس دناءة وخِسَّة ما يكون لصالح أعداء الدِّين من اليهود وأعوانهم، حيث يجمع هذا بين جرائم: التجسس، والخيانة، وموالاة أعداء الله وإيذاء المسلمين، وإفسادهم ونشر الفساد بينهم، واسمعوا وتفكروا في هذا الحديث العجيب: قَالَ ﷺ: «**مَنْ أَكَلَ بِمُسْلِمٍ أَكْلَةً** (يعني تجسس على أخيه، ونقل عنه أخبارًا ليأخذ مالًا أو أكلًا وشربًا ونحو ذلك) **أَطْعَمَهُ اللهُ**

بِهَا أَكْلَةً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ اكْتَسَى بِمُسْلِمٍ ثَوْبًا (تجسس، ونقل أخبارًا ليأخذ شيئًا يلبسه)؛ **كَسَاهُ اللهُ ثَوْبًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...** » (أخرجه أبو داود).

وللأسف؛ هناك أناس لا شُغل لهم إلا تتبع عورات الناس، وتصيّد زلاتهم، ويتفننون في التجسس وفضح الآخرين، والفرح بذلك، لا لمصلحة تَتَحَقَّق، ولا لمفسدةٍ تُتَّقى، وإنما لأجل الفضيحة وإبداء العيوب، أو بدافع الفضول، أو بدافع الحسد أو الانتقام، أو طمعًا في حطام الدنيا الزائل من أموال ومناصب. ويدخل في ذلك من يرسل التقارير المكذوبة والكيدية، ليقطع رواتب المظلومين، ومعايش المساكين! وليرتقي هو ويعتلي المناصب والمكانة والوظائف العليا، نسأل الله السلامة.

وقد خَصّ النبيّ ﷺ بهذا الحُكَّام والأمراء الذين يبنون مؤسسات وموظفين ومكاتب وتمويل.. بهدف التجسس على الناس، فقال ﷺ: «**إنَّ الأميرَ إذا ابتغى الرِّيبةَ في النَّاسِ أفسَدَهم**» (أخرجه أبو داود)، قيل: يزرع فيهم الخوف وعدم الأمان، فيُفسِد عليهم حياتهم وأعمالهم فيُصبحوا مجاهرين بالمعصية ، أو: أفسدهم عليه فأصبحوا يكرهونه.

فالواجِبُ على الإنسان العاقِلِ -وما أحسبك أيها القارئ الكريم إلا منهم- بالابتعاد هذا الخُلُق السيّء، وعدم التَّجَسُّسِ عن عُيوبِ النَّاسِ، نحن في زمن الاتصالات ووسائل التواصل المكتوبة والمسموعة والمرئية؛ حيث من السهل نشر الفضيحة وبثّها في كل الاتجاهات في طرفة عين، فبكبسة زِرّ واحدة إذا بالفضيحة تعم الأرض كلها، فمَن بحَث عن أسرار وعورات غيرِه سخر الله من يبحث عن عوراته وأسراره فيفضحه، ناهيك عن عذاب يوم القيامة، وكما تدين تُدان.

فائدة مهمة

يُستثنى من النهي عن التَّجَسُّس ما كان طريقًا إلى إنقاذ نفس من الهلاك مثلًا: كأن يخبر إنسانٌ ثقة بأن فلانًا خلا بشخص ليقتله ظلمًا، أو بامرأة ليزني بها، فيشرع في هذه الصورة التجسس والبحث عن ذلك حذرًا من فوات استدراكه. (الأحكام السلطانية للماوردي رحمه الله).

❖❖❖

الحديث التاسع والأربعون: **ثلاثة أسباب**..

49

جاء أناسٌ من اليهودِ إلى النبيِّ ﷺ فقالوا: السَّامُ عليك يا أبا القاسمِ، -والسام يعني الموت-، قَالَ: «**وعلَيكُم**» فَقَالَتْ عَائِشَةُ: السَّامُ علَيْكُم، ولَعَنَكُمُ اللهُ وغَضِبَ علَيْكُم، فَقَالَ ﷺ: «**مَهْلا يا عائِشَةُ، علَيْكِ بالرِّفْقِ، وإيَّاكِ والعُنْفَ، أوِ الفُحْشَ**»، قَالَتْ: أوَلَمْ تَسمَع ما قالوا؟! قَالَ: «**أوَلَم تَسمَعِي ما قُلتُ؟ رَدَدْتُ عليهم، فيُستَجَابُ لي فيهم، ولا يُسْتَجَابُ لهمْ فِيَّ**» (متفق عليه).

يُمكن أن نستفيد من هذا الحديث النبوي فوائد كثيرة جدًا، منها:

1- أن اليهود هم اليهود، لا ولم تتغير طباعهم وكُرههم للحق ولمن يُخالف ملَّتهم، فكما "آذوا" أنبياءهم من قبل؛ فهم يُحاولون إيذاء النبي محمد ﷺ.

2- أنَّ رَدَّ التحية على أهل الكتاب يكون بالصيغة الواردة في الحديث: «**وعلَيكُم**».

3- أن الرفق مطلوب حتى عند الاستفزاز، ومع غير المسلمين كذلك.

4- التغافُل عن بعض الأمور من الحِكمة، قال النووي رحمه الله: "في هذا الحديث استحباب تغافل أهل الفضل عن سَفَهِ المبطلين، إذا لم يترتب عليه مفسدة".

5- أن سب الكافر الذِّمي لا يجوز، لنهي النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها عن السَّب.

6- ما كانت عليه عائشة رضي الله عنها من الفطنة، والغيرة على رسول الله ﷺ، والجرأة في الحق، والانتصار لأهل الفضل ممن يؤذيهم.

وفوائد أخرى كثيرة، لكني أريد أن أقف عند حرصه ﷺ على توجيهِ وتأديبِ وتعليمِ أهلَهُ الأخلاق الحسنة، والتعاملات الصحيحة في المواقف التي يواجهونها في حياتهم، وهو هنا بَيَّنَ لها الخطأ في السبّ والشتم، كأنه ﷺ أراد أن لا يتعود لسانها على القول غير السليم، وكذا تضخيم الأمور، والغضب والعصبية الزائدة التي في غير موضعها.

وتعليم الأهل والاهتمام بأخلاقهم ومعاملاتهم، وعلاقتهم بربهم وبأنفسهم وبالآخرين؛ من أوجب الواجبات على الإنسان المسلم، كيف لا وأخلاق المسلمين؛

صغيرهم وكبيرهم، في خطر؟ فأعداء الإسلام لا ينامون عن التخطيط والتنفيذ لمؤامراتٍ بهدفُ تدمير عقيدتهم وأخلاقهم، ويُركزون على الأطفال والشباب لأنهم جيل المستقبل.

ويحمل الوالدين الدور الأكبر والمسؤولية العظمى، وذلك لثلاثة أسباب:

السبب الأول: لأن أولادنا وأهلينا نعمة.. نعم.. نعمة عظيمة أعطاها الله تعالى لكم، والله تعالى يقول: ﴿**واشْكُرُوا لي**﴾ يعني: أشكروا نعمي بصيانَتِها وحِفظِها، والأبناءُ من أكبر النعم، وتحتاجُ إلى شُكر، وشُكرها بتعليمهم دين الله لِيُعلّموه لأبنائهم، فينتشر بذلك الدين، ومن لم يُعلّم أولادَه دين الله فقد ضيَّع تلك النعمة..

والسبب الثاني: لأن أولادنا وأهلينا أمانة في أعناقِنا، ائتمننا رَبُّنا عليها، والله يقول: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ**﴾ يا الله؛ بخيانة الأمانة أنا أخون الله والرسول؟! نعم.. والأبناء والأزواج والأهل أعظم أمانة بعد أمانة الدين.

والسبب الثالث: لأن أولادَنا وأهلينا رَعِيَّة استرعانا الله إياها، و«**كُلّكُم راعٍ وكُلّكم مسئولٌ عن رعيّتِه**»، مسئول ليس أمام محكمة البداية أو الصُّلح حيثُ يُمكن أن يكذب على القاضي ويَحلف الأيمان زوراً.. قال ﷺ: «**لا يَسترعي اللهُ تَبارك وتَعالى عبدًا رعيَّةً، قَلَّتْ أو كَثُرَتْ، إلا سَأَلَه اللهُ تَبارك وتَعالى عنها يَومَ القيامَةِ، أقامَ فيهم أمْرَ اللهِ تَبارك وتَعالى أم أضاعَه؟ حتى يَسأَلَه عن أهْلِ بَيتِه خاصَّةً**» (أخرجه أحمد)، هل أقام فيهم أمر الله؟ لا أظُنّ أن أحداً مِنّا سَيَنسى هذا السؤال، فهو سؤالٌ مُهِمٌ جداً، حَضِّروا له جواباً من الآن، فهل أقمتم في أهلكم أمر الله؟

تطبيق عملي

يقول مالك بن الحويرث رضي الله عنه: أَتَينَا رسول الله ﷺ، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان ﷺ رحيماً رفيقاً، فَظَنَّ أنَّا قد اشتقنا أهلنا، فقال لنا: «**ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم، وَعَلِّمُوهم وَمُرُوهُم، وَصَلُّوا صلاة كذا في حين كذا...**» (متفق عليه، بِتَصَرُّف).

❖❖❖

50 قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً؛ إنْ كَرِهَ منها خُلُقًا، رَضِيَ منها خُلُقًا آخَرَ**» (رواه مسلم).

(الفَرْكُ) في اللغة يعني: البغضاء والعداوة، والمقصود من الحديث: لا يُعادي المؤمنُ المؤمنةَ كزوْجتِه أو أخته أو أيًا من محارمه، وبالأخصّ الزوجة، فلا يُعاديها ويُبغِضها بُغضًا تامًا، لأن هذا البُغض قد يدفع إلى ظُلمها، أو حرمانها من حقِّها، أو الاعتداء عليها، حتى وإن تصرَّفت معه بتصرُّف لم يَرُقْ له، فإذا رأى منها ما يَكرَهُه من الأخلاق؛ فإن فيها صفات وأخلاق أخرى تُعجبهُ، فيَرضَى بهذا الخلُقِ الحَسنِ الَّذي يروق له، ويُقابِلُه بالخُلُق أو التصرُّف الذي لا يروق له، فيَدفعه هذا إلى أن يَغفِر الصفة السيئة لوجود الصفة الحسنة، ويَتغاضَى عمَّا يَكرَهُ لأجل ما يحِبُّ، فلا يُبغضُها بُغضًا كليًّا يَحمِلُه على فِراقِها.

وهذا الحديث أصلٌ عام في المعاملات سواء مع الزوجة أو القريب أو الصاحب أو العامِل والموظف، أو المعلم، وكل من بينك وبينه علاقة واتصال.. فيجب أن يفهم المرء أنه هو وكل من يُتعامل معهم لا بد أن يكون هناك نقص أو أمر تكرهه، فإذا وجدتَ ذلك، فكن عادلاً وسطيًا من أجل الإبقاء على المحبة، فتتذكر ما فيهم من المحاسن، والأخلاق المُرضية، فتدوم الصحبة والعلاقة، وتحصل راحة البال.

وهذا هو العدل، فالله تعالى يأمرنا بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا**﴾ يعني لا يَدفعك بُغضُ أي إنسان على عدم العدل، بحُجَّة أنك تُبغضه، فيجب أن تعدل، لأن الله يقول بعد ذلك: ﴿**اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ إن كُنت تُريد أن تكون من أهل التقوى، ثم يأتي أمر آخر للتأكيد على أهمية المسألة، فتُكمل الآية بالأمر: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾، ثم تحذير من عدم العدل حتى مع من تكرهون: ﴿**إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (المائدة: 8)، أي: كُل أعمالكم معلومة عنده، مكتوبة في سجلات لا تُغادر صغيرة ولا كبيرة.

فالحاصل أن الإنسان ينبغي له أن يعامل مَن بَينه وبينهم صلةٌ؛ مِن زوجيَّة، أو صداقة، أو زمالة عمل،أو في بيع أو شراء أو غيره، أن يعامله بالعدل، فإذا أساء إليه يومًا من

الدهر، فلا يَنسَ إحسانَه إليه مرات أخرى، وقارِن بين هذا وهذا، وإذا غلَبَ الإحسان على الإساءة، فالحكم للإحسان، وإن غلَبَت الإساءة على الإحسان، فانظُرْ إن كان أهلًا للعفو فاعفُ عنه، ومَن عفا وأصلَحَ فأجرُه على الله، وإن لم يكن أهلًا للعفو، فخُذْ بحقك وأنت غير ملوم إذا أخذت بحقك، لكن انظر إلى المصلحة، وبحكمة، ولا تنسَى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (النحل: 90).

تطبيق عملي

لما بعث النبيُّ ﷺ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إلى يهود خَيْبَرَ يُعطيهم حُصَّتهم من ثمر النخل، قال لهم: "يا معشر اليهود، أنتم أبغضُ الخلقِ إليَّ، قتَلتُم أنبياء الله عز وجل، وكذَبتم على الله، وليس يحملني بُغضي إياكم على أن أَحِيفَ عليكم، قد خرَصتُ عشرين ألف وَسْقٍ من تمر، فإن شئتم فلكم، وإن أَبَيْتم فلي"، فقالوا: بهذا -العدل- قامت السمواتُ والأرض. (أخرجه أحمد).

❖❖❖

51 اختصم رجلان من المسلمين، ونادى كل واحد على قومه فتجمَّعوا، ورفعوا أسلحتهم استعدادًا للحَربِ، فَسَمِعَ النَّبيُّ ﷺ بما جرى، فجاء إليهم يجُرّ ثوبه وقد غَضِبَ غضبًا شديدًا، وقال لهم: «**اللهَ اللهَ! أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟**» (ابن هشام والطبري).

هل تعرفون ما قصة هذا الحديث؟ أنا أخبركم بها باختصار..

لما رأى يهودُ المدينةِ ما عليه المسلمون من أمانٍ وسلامٍ بين العائلات وأُلفة بين الأفراد، اغتاظوا كثيرًا، كيف لا وهم أهل الفتنة والفساد؟ فقام شيخهم (شاس بن قيس) وأرسل تلاميذه لأجل إيقاع الفتنة بين المسلمين، وفعلاً استطاعوا تهييج بعض المسلمين على بعض، وتذكيرهم بما كان بينهم من فُرقةٍ وحُروب قبل الإسلام، حتى وقف رجلان من الأنصار، ونادى كل واحد منهما جماعته وعائلته وأصحابه، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فخرج إليهم غاضبًا، ومعه بعض أصحابه حتى جاءَهُم، فقال: «**يا معشر المسلمين! الله، الله.. أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهُرِكُم؟ بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألَّف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟!**» فعرفوا أنها نزغةٌ من الشيطان، ومؤامرة من عدوهم، فألقوا السلاح، وَبَكوا ندمًا، وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، وقد أطفأ الله عز وجل عنهم كيد اليهود.

في هذه القصة ما لا يُحصى من العبر والعِظات، لكني سأقف على تعامل النبي ﷺ مع من يستعدون للشِّجار أو (الطُّوَش)، وهنا يقع على عاتقنا إيقاف كُل بذرة للشر بين المسلمين، ومنع أي فعل أو ردة فعل تَزِيد النار اشتعالاً، بل يجب إطفاؤها، ومنع انتشارها، وتهدئة النفوس، وتقريب وجهات النظر، وتذكير المتخاصمين بالله تعالى، وأنهم أخوة في هذا الدين، وأن الله لا يقبل النزاعات بين عباده الصالحين، لهذا أمرنا النبي ﷺ بقوله: «**ولا تَباغَضوا، ولا تَدابَروا.. وكُونوا عبادَ اللهِ إخوانًا، المسلم أخو المسلم: لا يَظلِمُه ولا يَحقِرُه، ولا يخذُلُه... بحسْبِ امرئ من الشر أن يَحقِرَ أخاه المسلم، كلُّ المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعِرضُه**» (رواه مسلم).

وكذا ينبغي علينا تذكيرهم بالعفو، والمسامحة، وأنه شأْنُ العظماء، وخُلُقُ الأنبياء، ودأبُ الأتقياء: ﴿**وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ**﴾ (البقرة: 237)، فهذه الحمية للقبيلة والعائلة ولأصحابي ولأصدقائي أو لأبناء قريتي؛ دون أن تتحقق أنهم على حق أم لا من أخلاق وتصرُّفات أهل الجاهلية، وقد جاء الإسلام بذم الحمية لغير الدين فقال تعالى: ﴿**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾ (الفتح: 26)، ويُروى عن النبي ﷺ قوله: «**ليسَ منَا مَنْ دعا إلى عصبيَّةٍ وليس مِنَّا مَنْ قاتَلَ علَى عصَبِيَّةٍ وليس مِنَّا مَنْ ماتَ علَى عصبِيَّةٍ**» (أخرجه أبو داود).

أيُعقل -أيها الكرام- أن نأخذ حُكم الجاهلية وأخلاق وتَصَرُّفات الجاهلية؛ وكتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ بين أيدينا؟!! لا.. ينبغي أن نقتدي بالرسول ﷺ ولا (نصُبّ الزيتَ على النار)، بل نسعى إلى التخفيف من حدة المشاكل، وزرع بذور المحبة، ونزع فتيل العداوة والبغضاء، لنقطع على الشيطان طريقه، قال ﷺ: «**إِنَّ الشَّيطَانَ قَد أَيسَ أَن يَعبُدَهُ المُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَلَكِن فِي التَّحرِيشِ بَينَهُم**» (أخرجه سلم)، أي: أنه يسعَى فِي التَّحرِيش والتحريض بَين المؤمنين بِالخُصُومَاتِ وَالشَّحنَاء وَالحُرُوب وَالفِتَن، بعد أن يئسَ أن يعبدوه ويطيعوه..

حديث مُشابه

يقول جَابِرٍ رضي الله عنه: اقتَتَلَ غُلَامٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ، وَغُلَامٌ مِن الْأَنصَارِ؛ فَنَادَى الْمُهَاجِرُ: يَا لَلمُهَاجِرِينَ!! وَنَادَى الأَنصَارِيُّ: يَا لَلأَنصَارِ!! فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**مَا هَذَا؟! دَعوَى أَهلِ الجَاهِلِيَّةِ؟!**» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا أَنَّ غُلَامَينِ اقْتَتَلَا، فَكَسَعَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ. قَالَ: «**فَلا بَأْسَ**» يعني: بسيطة لا يوجد مشكلة، ما تكبروها، ثم قال: «**وَلينَصُر الرَّجُلُ أَخَاهُ، ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا؛ إِنْ كَانَ ظَالِمًا فَلينَهَهُ، فَإِنَّهُ لَهُ نَصْرٌ. وَإِنْ كَانَ مَظْلُومًا فَلْيَنْصُرْهُ**» (أخرجه مسلم).

❖❖❖

52 تقول عائشة أم المؤمنين ﵂: "ما رأيتُ صانعةً طعامًا مثلَ صفيَّةَ ﵂، أَهْدَتْ إلى النبيِّ ﷺ إناءً مِن طعامٍ، فما مَلَكْتُ نفسي أن كَسَرْتُه، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما كفارتُه؟ قال: «**إناءٌ كإناءٍ، وطعامٌ كطعامٍ**»" أو قال: «**طعام كطعامها، و إِنَّاء كإِنَّائها**» (أخرجه أبو داود).

هذه القصة فيها أيضًا فوائد كثيرة، ولنقف عند حُكم النبي ﷺ في المسألة، حيث أرسلت أم المؤمنين صفية ﵂ طعامًا للنبي ﷺ وهو في بيت عائشة، فغارت منها غيرة الضرائر، وهذا وارد بينهن، فكسرت الصحن (الإناء) وسقط الطعامُ على الأرض فَتَلِفَ، لكن عائشة ﵂ ندمت على فعلتها هذه، وقالت: "يا رسولَ اللهِ، ما كفارتُه؟" يعني: كيف لي أن أخرج من هذه المشكلة؟ كيف يغفر الله لي هذه الفِعلة؟ فقال لها ﷺ: «**طعام كطعامها، و إِنَّاء كإِنَّائها**»..

"هذا موقف تربويٌ عظيمٌ من مواقف النبي ﷺ، موقفٌ قد لا يتصرف معه كثيرٌ من الرجال أمثالُنا بأقل من السَّب والشتم وربما الضرب والوعيد والتهديد، هذا إن لم يصل الحال إلى طلاق الزوجة وإهانتها".

وهذا خطاب عام لكل زوجٍ أن يرفق بزوجته ويراعي مسألة الغَيْرة عند النساء، فلا تغيب عنه هذه الكلمات النبوية وهو يتعامل مع زوجته يومياً، ربما تخطئ الزوجة في حقه أحياناً؛ كما هو يخطئ في حقها أحيانا أخرى وربما يكون خطأه أكثر من خطئها، فالمهم أن يعلم الأزواج أنه ليست هناك أحدٌ كامل الأوصاف أو الأخلاق، فالطبيعة البشرية يستحيل معها الكمال؛ فالكمال لله وحده ومن ذا تراه منا كاملاً لا خطأ له ولا زلل!

وما فعله النبي ﷺ هو الحل العدل، ففي معاملاتنا مع إخواننا، فإذا ما حصل وأُتلفَ شيءٌ ذو قيمة فإن فيه الضمان -كما قال أهل الفقه-، فمن ثبت إتلافه لشيء معين أو تَسَبَّبَ في تلفه، فإنه يضمن ما أتلف، سواء كان عامدًا أو مخطئًا، وسواء كان صغيرًا أو كبيرًا، إذ العمد والخطأ في أموال الناس سواء، وهذا الضمان لأجل حفظ حقوق الناس، وجبر الأضرار، وأيضًا زجرٍ لمن فعل ذلك مُتعمِّدًا، وللحدّ من الاعتداء؛ لأنه إذا لم يكن

ضمان؛ قد تتسبب هذه المسألة في مشكلة وخلاف أو اعتداء من صاحب الشيء المُتلَف، وقد وردتْ نصوص كثيرة تدلُّ على ضمان المُتلَفَات الماليَّة ونحوها؛ قال تعالى: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ**﴾ (النحل: 126)، وهو من محاسن الشَّريعة؛ إذ فيه تقوية أواصر المحبَّة والإخاء، كما أنَّ فيه تبادل المصالح، وتيسير أمور الناس ومصالحهم، وعدم ظُلمهم.

وقول النبي ﷺ: «**طعامٌ بطعام، وإناءٌ بإناء**» يدُل على أن الضمان والعِوَض يكون بقدر الشيء المُتلف، ولا يجوز أن يأخذ أكثر منه إلا إذا وافق الضامِن، وهذا عين العدل، ففي بيوتنا وفي أماكن عملنا قد نتعرض لمثل هذه المواقف، عندها؛ يجب أن يظهر حُبّنا للنبي ﷺ بالاقتداء به، وعدم إظهار الغضب الزائد على اللزوم، والتعامل بالحكمة، ولا نستغل هذه الحادثة لإشعال مشكلة كبيرة، ويتجلى أيضًا العفو والمسامحة.

معلومة مهمة

"نَقَلَ غير واحد من أهل العلم إجماع الفقهاء على أنَّ الدِّماء والأموال مصونة في الشَّرع، وأنَّ الأصْل فيها الحظر، وأنَّه لا يحلُّ دم المسلم ولا يحل مالُه إلاَّ بحقّ، وأن من أتلف شيئًا، عليه ضمانه"..

❖❖❖

53

قال النبيُّ ﷺ: «**أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللهِ ذِرَاعٌ مِنَ الأَرْضِ، تَجِدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الأَرْضِ أَوْ فِي الدَّارِ، فَيَقْتَطِعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا، إِذَا اقْتَطَعَهُ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» (أخرجه أحمد).

أردتُ أن أخُصّ مسألة الأرض بالحديث؛ لأنها -مع كل أسف- من أكثر وأكبر أسباب الخصومات والنزاعات بين الناس، وقد تؤدي إلى القتل والظلم، وهذا دليل على تَعَلُّق القلوب بالدُّنيا، وابتعادها عن منهج الله تعالى وسُنة نبيه ﷺ، ودين الإسلام وضع أساسات لهذه القضية حتى لا تتحول إلى خلاف يُفَرِّق العائلة، ويُمزّق المجتمع.

أول هذه الأساسات: زَرع الإيمان في القلوب، فمن كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان لا يختار أي شيء من أشياء الدنيا على رضا الله تعالى، ولا يُمكن أن يأكل أموال غيره بالباطل وبطرق ملتوية غير مشروعة؛ فإيمانه يُذَكِّرُه بأن رضا الله خير وأبقى، قال ﷺ: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَي اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ الله عَنْهُ وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ؛ سَخَطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عليه الناس**» (رواه ابن حبان)..

الأساس الثاني: تزهيد الناس في الدنيا، وزرع حُب الآخرة في القلب بدلاً منها، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ**﴾ (غافر:39)، والمتاع زائلٌ ولا بُد، لهذا حَبَّبَ إلينا الآخرة، وقال: ﴿**وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ (الشورى:36)، فمهما بلغ العبدُ من عطاءٍ في الدنيا فلا قيمة له في مقابل عطاء الآخرة ونعيمها وبقاء الدَّائم السَّرمدي.. ولأن حُب الدُّنيا قد يؤدي إلى مصير خطير يوم القيامة، قال تعالى عن أهل الكُفر الذين يُمعنون في الجرائم والقتل والضلال: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (النحل:107)، وحتى قالوا في الأمثال: "حُبّ الدنيا رأس كل خطيئة"، وهذا صحيح.

والأساس الثالث: الترهيب من أخذ أموال الناس بغير الحقّ، وخَصَّ الأرض بالذات؛ انظروا هذه الأحاديث النبوية، وتفكروا فيها بقلوبكم: «**مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنْ الأَرْضِ بِغَيْرِ**

حَقِّهِ، طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ، وَمَنْ اقْتَطَعَ مَالَ أَخِيهِ بِيَمِينِهِ، فلا بَارَكَ اللهُ لَهُ فِيهِ» (أحمد)، **«مَنْ أَخَذَ مِنْ الأَرْضِ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ، خُسِفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ»** (البخاري)، **«مَنْ غَصَبَ رَجُلا أَرْضًا ظُلْمًا، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»** (الطبراني)، **«مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا، طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَومَ القِيَامَةِ مِن سَبْعِ أَرَضِينَ»** (متفق عليه).

وخصَّ بالذات من يُغيِّر الحدود بين أرضه وأرض الناس، فيزيد في أرضه على حساب أرضهم، فقال ﷺ: **«مَلْعُونٌ مَنْ غَيَّرَ حُدُودَ الأَرْضِ»** (الطيالسي)، **«إِنَّ مِنْ أَفْرَى الْفِرَى** (يعني أكذب وأخطر الكذب) **مَنْ غَيَّرَ تُخُومَ الأَرْضِ»** (أحمد).

وانظروا إلى هذه العقوبة الشديدة: قال ﷺ: **«أيُّما رَجلٍ ظلَمَ شِبرًا منَ الأرضِ، كلَّفَه اللهُ عزَّ وجلَّ** (يعني يوم القيامة) **أنْ يَحفِرَه حتى يبلُغَ آخِرَ سَبعِ أرَضينَ، ثُم يُطوَّقُه إلى يومِ القيامةِ** (عند الحشر والحساب)**، حتى يُقْضى بينَ النَّاسِ»** (أحمد)..

الحديث -أيها المؤمن الغالي- يطول كثيرًا في ذلك، لكن السؤال الآن: ماذا نفعل؟ الجواب: نفعل كما فعل قدوتنا النبي ﷺ، اقرأوا هذه القصة بِنية الاقتداء به وبأصحابه رضي الله عنهم: "جاء رجُلانِ إلى النَّبيِّ ﷺ يختَصِمانِ في مواريثَ (أرض من الميراث) بيْنَهما قدْ درَسَتْ، ليْسَتْ لهما بَيِّنةٌ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: **«إنَّما أنا بَشَرٌ، وإنَّه يأْتيني الخَصْمُ، ولعلَّ بعضَكم أنْ يكونَ أبلَغَ مِن بعضٍ فأَقْضيَ له بذلك، وأحسَبَ أنَّه صادقٌ، فمَن قضَيْتُ له بحقِّ مُسلِمٍ، فإنَّما هي قِطعةٌ مِن نارٍ، فلْيأخُذْها، أو فلْيَدَعْها»**، فبكَى الرَّجُلانِ، وقال كُلُّ واحدٍ منهما: حقِّي لأخي، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: **«أمَا إذْ قدْ فعَلْتُما هذا، فاذْهَبا فاقْتَسِما، وتَوَخَّيا الحقَّ، ثمَّ اسْتَهِما، ثمَّ لِيُحْلِلْ كلُّ واحدٍ منكما صاحبَهُ»**" (الحاكم).

لا تنسى!

أن رضا الله تعالى خير من رضا كل الناس، وأن دعوةً من أمك أو أختك أو جارك أو موظفك خير لك مما طلعت عليه الشمس، فالدنيا لعب ولهو وزينة، وكل هذا مؤقَّت زائل.

❖❖❖

54 قال النبيُّ ﷺ: «**إن أبرَّ البرِّ صلةُ المرءِ أهلَ ودِّ أبيه بعد أن يوليَ**» -أي بعد أن يموت- (أخرجه أبو داود).

هذا الحديث يُرشدنا إلى وسيلةٍ لِبِرِّ الوالدين بعد وفاتهما، وهي إظهار الوُدّ والاحترام والإكرام لكل من كان الوالدُ أو الوالدةُ يُحبهم أو يُكرمهم، وأيضًا زيارتهم والسؤال عنهم، والتصدُّق عليهم، تقديرًا للوالد المتوفى، وقوله ﷺ: «**إن أبرَّ البرِّ**» يعني من أعلى درجات البِرّ أن يمتد الاحترام والتواصل مع أصحاب المتوفى، والإحسان إليهم، وتفقدهم وما أشبه ذلك فهذا يدل على برٍ عظيم، وتقدير للمتوفى، بل هذا من حقّه عليك.

وقد طبق النبي ﷺ ذلك عمليًا مع أحبابه، فقد "كان ﷺ إذا ذبحَ الشَّاةَ يقولُ: «**أَرْسِلُوا بها إلى أصدِقاءِ خَديجةَ**»" (متفق عليه)، بل كان ﷺ إذا أتي بالشيء كهدية مثلاً، يقول: «**اذهبوا به إلى فلانة، فإنها كانت صديقة خديجة، اذهبوا به إلى بيت فلانة، فإنها كانت تحب خديجة**» (الحاكم)، وفي هذا دلالة على حسن العهد والوفاء، وحفظ الود لزوجته خديجة رضي الله عنها، التي كان يُحبها كثيرًا، فهي التي آمنت به حين كَفَر به النّاس، وصدّقته حين كذّبه النّاس، وواسته بمالها حين امتنع عنه النّاس، وإكراماً وحباً لها كان يُكثر من مدحها ويَذكُر فضائلها ويستغفر لها، لم يتزوَّج غيرها في حياتها. وكان يُكرمها ويُكرم حتى صديقاتها بعد موتها، لدرجة أنه ﷺ كان في بيته فَطُرِقَ الباب، فتذكر من صوت الباب أيام خديجة، وكأنه يعرف طرقَهَا للباب، فقال: «**اللهم هالة بنت خويلد**» يعني: يا رب تكون هالة أخت خديجة، وبالفعل كانت أخت زوجته، فجاءت هالة فأكرمها وفاءً لزوجته (مُسلم).

ثم انظروا إلى هذه القصة العجيبة ذات العبر والعظات الكثيرة، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "جاءت عجوزٌ إلى النبيِّ ﷺ وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ: «**من أنتِ؟**» قالت: أنا جثَّامةُ المُزنيَّة، فقال: «**بل أنتِ حسَّانةُ المُزنيَّة**» اختار لها اسمًا فيه خير وتفاؤل أكثر من اسمها الأول، ثم قال لها: «**كيف أنتُم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتُم بعدنا؟**» قالت: بخيرٍ بأبي أنت وأمّي يا رسول الله، فلما خَرَجَت قلتُ: يا رسول الله تُقبِلْ

على هذه العجوز هذا الإقبال؟!! فقال: «**إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإنَّ حُسْن العهد من الإيمان**» (رواه الحاكم)، وحُسن العهد يعني الوفاء.. أرأيتم أعظم منه وأكرم ﷺ؟!

وكذلك الصّحابة، اقتدوا بحبيبهم ﷺ في ذلك، فهذا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما لَقِيَ رجلًا من الأعراب بطريق مكة، فسلَّم عليه، وحمَلَه على حمارٍ كان يركبه، وأعطاه عمامةً كانت على رأسه، فقيل له: أصلَحَك الله! إنهم الأعراب وهم يَرضَوْن باليسير؟! فقال ابن عمر: إن أبَا هذا كان وُدًّا لعمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن أبَرَّ البرِّ صلةُ الرجلِ أهلَ وُدِّ أبيه**» (أخرجه مسلم).

ويُروى أن رَجُلاً قال يا رسولَ اللهِ؛ هل بَقِيَ من بِرِّ أبَوَيَّ شَيءٌ أبَرُّهُما به بعدَ مَوتِهِما؟ قال : «**نَعمْ، الصلاةُ عليهِما** (يعني الدعاء لهما)، **والاسْتغفارُ لَهُما، وإنْفاذُ عهدِهِما من بَعدِهِما** (إذا كانوا قد وعدوا بشيء نُحققه لهم)، **وصِلَةُ الرَّحِمِ التي لا تُوصَلُ إلا بهِما، وإكرامُ صَدِيقِهِما**» (أحمد).. هكذا ينبغي أن تكون معاملتنا مع أحبابنا والأعزاء على قلوبنا الذين توفاهم الله، وانقطعت بهم الصِّلة..

وكل هذا -أيها الغالي- حتى يعيش المجتمع أفضل عيشة، وينعم بالخير والأمان والسلام والحُب والاحترام والتقدير لكل الناس، حتى أصدقاء الأقارب، فينبغي أن نقتدي بالحبيب ﷺ ، فنكون مفاتيح للخير والأمن والأمان في المجتمع، لا مفاتيح للشرّ والفتنة والأذى و(الطُّوَش) والمُشجارات، وقد جاء في الحديث: «**إن من الناسِ مفاتيحُ للخيرِ، مغاليقُ للشرِ، وإن من الناسِ مفاتيحُ للشرّ، مغاليقُ للخيرِ، فطوبى لمن جعلَ اللهُ مفاتيحَ الخيرِ على يديهِ، وويلٌ لمن جعلَ الله مفاتيحَ الشرِّ على يديهِ**» (ابن ماجة).

لا تنسى !

ننبه هنا على مسألة مهمة، وهي أنه لا بد من مراعاة الضَّوابِط الشرعية في تلك الصِّلة، فلو كان الموصول امرأة أجنبية عن الرجل، فليتزم بالضوابط الشرعية في صلتها، منها منع الخلوة، والمصافحة، والخضوع بالقول، وهذا إذا أَمِنَت الفتنة، وفي حال لم تأمن الفتنة فلا يصح ذلك، والله أعلم.

❖❖❖

55 قال النبيُّ ﷺ: «**أعْطوا الأجير أجْره؛ قبل أنْ يَجف عَرَقه**» (أخرجه ابن ماجة).

في هذا الحديث يُوجَّه النبي ﷺ أمته إلى رعاية حقّ الأجير والعامل والموظَّف، ويأمُر بتأدية أجرته دون تأخيرٍ ولا مماطلة، ولاحظوا قوله ﷺ: «**قبل أنْ يجفّ عرقه**» كناية عن وجوب المبادرة والإسراع بإعطاء أجره عقب فراغه من العمل، وترك المماطلة؛ لأن فيها ظُلم له، وإخلاف للوعد الذي قطعه صاحب العمل مع العامل.

وإذا كان النبي ﷺ أمر بعدم تأخير الأجرة للعامل، فما بالكم بمن يمنع عنه أجره ولا يُعطيه، بل ويعتبر ذلك "شطارة" وفهلوة وذكاء وحُسن صنيع؟؟ فليعلم أمثال هذا أن فعله هذا من كبائر الذنوب، وقد حذر الله تعالى من ذلك، وجعل آكل حق الأجير خصمًا له يوم القيامة، يقول النبيُّ ﷺ: «**قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة**» يا الله.. ربُّنا العظيم خصمهم يوم القيامة؟! «**ثَلاثَةٌ أنا خَصمُهُمْ يَومَ القِيامَةِ...**» ومنهم: «**ورَجُلٌ استَأْجَرَ أجِيرًا فاستَوْفَى منه ولم يُعطِه أجرَه**» (البخاري).. فهل يستطيع العبد المخلوق أن يكون خصمًا للخالق جل جلاله؟! مهما كانت قوته.. وهما مَلَكَ من حُطام الدُّنيا.. فإنه يبقى مخلوقًا ضعيفًا..

وما أُهلِكَت الأمم السابقة؛ إلا بظلمها وبغيها وتعديها على الضعفاء؛ قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا**﴾ (يونس:13). كما حذّر الرسول ﷺ من الظلم وقال ﷺ: «**اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**» (رواه مسلم). ويقول ابن الجوزي رحمه الله: "الظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير، ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها، لأنه لا يقع غالبًا إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما يَنشأ الظُّلمُ عَن ظُلمةِ القلب، ولو استنار بنور الهدى لاعتبر".

وإن من الواجب حصول العامل على حقوقه التي اتفق عليها مع صاحب العمل، وألاّ يحاول صاحب العمل انتقاص شيءٍ منها، أو يخصم عليه بغير وجه حق، فيبخسه حقه، أو يستغل حاجته للعمل فيزيد عليه من الأعباء والأشغال غير المتفق عليها دون أجر

إضافي، فقد اعتبر القرآن هذا من الفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾ (هود:85)، والمعنى: ولا تنقصوا الناس حقوقهم التي يجب عليكم أنْ توفوهم إياها؛ فالزيادة في العمل يقابلها زيادة في الأجر، فإنّ هذا من العدل الذي أمرنا الله تعالى به.

وإنَّ أرباب العمل والعُمال، والأغنياء والفقراء، والحُكام والمَحكومين يجب أن يكونوا وَقَّافين عند حُدود الله التي حَدَّها، مُلتزمين بالقوانين والأحكام التي شَرَعَها، فلا يَتَجاوَزَها أحدٌ؛ لأن قلوبهم تنبض بقول ربِّهم: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ**﴾، الله هو الذي سيرى عملكم.. لأنه محفورٌ في قلوبهم قول ربِّهم: «**يا عبادي: إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أُوَفّيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله عز وجل، ومن وَجَدَ غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ**» (مُسلم).. ومحفورٌ في قلوبهم قولُ نبيِّهم: «**إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**» (مُسلم).

أختم بهذا الحديث الذي يأمر فيه النبيُّ ﷺ أربابَ العمل وأصحاب المصانع وكل من يعمل تحت يده عامل أو موظف، ويقول: «**إخوانُكم خَوَلُكم، جَعَلَهم اللهُ تحت أيْديكم**» موظفين أو عُمَّال أو مساعِدين «**فمَن كان أخُوه تحت يَدِه فلْيُطعِمْه ممَّا يَأكُلُ، ويُلبِسْه ممَّا يَلبَسُ، ولا تُكلِّفوهم ما يَغلِبُهم، فإنْ كَلَّفتُموهم فأعينُوهم، ومَن لم يُلائِمْكم منهم فبِيعوهم، ولا تُعذِّبوا خَلْقَ اللهِ**» (مُتفق عليه).

تنبيه مهم

يجب على صاحب العمل؛ أنْ يحفظ حق العامل كاملاً إذا غاب أو نَسِيَه، فهو في ذمته، وقد ثبت في السُّنة أن ذلك سبيل إلى البركة والخير والنَّجاح والتوفيق وتيسير الأمور في الدنيا، وقد جاء في حديث الثلاثة نفر المشهور.. ابحثوا عن هذا الحديث واقرأوه، ففيه فوائد رائعة وجليلة..

❖❖❖

56

قال النبيُّ ﷺ: «**ليسَ الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّما الشَّديدُ الَّذي يملِكُ نفسَه عندَ الغَضبِ**» (متفق عليه).

كثير من الناس -مع كل أسف- عنده قناعة أن كل ما يواجهه في حياته من مشاكل وصعوبات وإشكاليات لا تُحَلّ إلا بالقوة والشِّدَّة، والصَّوت العالي، والتهديد والوعيد، وخاصَّة إذا كان له سُلطة أو سطوة أو قُوَّة، أو لأنه ابن فُلان أو عَلان... وفي هذا الحديث يُخبرنا النبيُّ ﷺ أن هذا التفكير ليس صحيحًا، وهذه التَّصَرُّفات غيرُ سليمةٍ، فـ «**ليسَ الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ**» ليس الإنسان القوي -بالمعنى الصَّحيح- هو الذي لا يُفَكِّر إلا في مصارعة الناس وهزيمتهم وتخويفهم وتهديدهم، ولسان حاله يقول: (من أَشَدُّ منِّي قوة)، فهذا ليس قويًا في ميزان الله وميزان العدل والحق؛ وإن كانت عضلاته مفتولة، ليس قويًا وإن كان أبوه فلان... ليس قويًا وإن كان يملك سلاحًا أو مالاً.. ليس قويًا ولو ساندَه من يُسانده..

فمن هو القوي في ميزان الحق؟ يُتابع الحديث: «**إنَّما الشَّديدُ الَّذي يملِكُ نفسَه عندَ الغَضبِ**»، فالشديد والقوي -على الحقيقة- هو من يملك نفسه عند الغضب، الذي يتحكم في نفسه وليست هي من تتحكم فيه، وهو الرَّجلُ القويّ في إرادتِه، فيَكظِم غَيظَه، ويَمنَع نفسَه عن تَنفيذِ ما تَدعوه إليه مِن إيذاءِ النَّاسِ بالشَّتمِ والضَّربِ والعُدوانِ، وغيرِ ذلك من أنواعِ الإيذاءِ.

وهذا يدُلُّ على أنَّ "مجاهَدةَ النَّفسِ" من أعظم أنواع الجهاد، وكلما انفعلت النفس واشتد الأمر على الإنسان كان كظم الغيظ أعظم نفعًا وأكثر أجرًا، اسمعوا إلى هذا الحديث، قال ﷺ: «**الصَّرعة كل الصَّرعة الذي يغضب فيشتد غضبه ويحمر وجهه، ويقشعر شعره فيصرع غضبه**» (أحمد)، فالمغلوب والمهزوم على الحقيقة هو الذي غلبه هواه، وهزمه غَضَبُهُ، وانجرَّ وراء نفسه الأمارة بالسُّوء.

وينتهز النبيُّ ﷺ الفرصة في حادثة أمام الصحابة ليوضح هذا الأمر، فقد مَرَّ ﷺ يومًا بقوم يَصْطَرِعُون (يعني يلعبون المصارعة ليَروا أيُّهُم أقوى)، فقال: «**ما هذا؟**» قالوا: فلانٌ

المُصارع، ما يُصارِعُ أحدًا إلا صَرَعَهُ، قال: «**ألا أدُلُّكم على مَن هو أشَدُّ منه؟ رَجُلٌ ظَلَمَه رَجُلٌ، فكَظمَ غَيظَه فغَلَبَه، وغَلَبَ شَيطانَه، وغَلَبَ شَيطانَ صاحِبِه**» (رواه البزار).

فهذا الذي كَظَمَ غَيظَهُ ولم ينجرّ إلى المشاكل والنزاعات والشِّجارات قد هَزَمَ بِحِلمِهِ ثلاثة أعداء: هزم صاحبَه، وشيطانَه، وشيطانَ صاحبه أيضًا، فما ينبغي للإنسان أن يخرج عن طوره ويفقد سيطرته على نفسه، فيتكلم بما لا يعي ولا يعقل، وقد يُطَلِّق امرأته، أو يَسُبّ نفسه، ثم يندم على تصرفاته التي صدرت منه، فالمُجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، ومنعها عن الاسترسال في الملذات والشهوات المحرمة، قال ﷺ: «**المسلِمُ من سلمَ المسلمونَ من لسانِهِ ويدِهِ، والمؤمنُ من أمنَهُ النَّاسُ علَى دمائِهِم وأموالِهِم، والمجاهدُ مَن جاهدَ نفسَهُ في طاعةِ اللهِ والمُهاجِرُ مَن هجَر الخطايا والذُّنوبَ**» (أحمد)، فهذه نفسك أقرب أعدائك إليك، ابدأ بنفسك فجاهدها، وزكّيها، وطيِّبها طاعة لله وإرضاء له، فذلك أعظم لأجرك، قال ﷺ: «**ما مِن جُرعةٍ أعظَمُ أجرًا عندَ اللهِ مِن جَرعةِ غَيظٍ كَظَمَها عَبدٌ ابتِغاءَ وَجهِ اللهِ**» (ابن ماجة).. لا تنسى!! ابتغاء وجه الله.

ومن الأسباب المُعينة على إطفاء نار الغضب أن تتذكر ما أعدَّ اللهُ للمتقين الذين جاهدوا أنفسهم في كبت الغضب وعدم التفاخر على الناس بالقوة والمال والجاه، تفكروا في قوله ﷺ: «**لا تغضب ولك الجنة**»، وفي قوله: «**وَمَن كَظَمَ غيظَه ولو شاء أن يُمضِيَه أمضاه؛ ملأ اللهُ قلبَه يومَ القيامةِ رِضًا**»، وفي رواية: «**مَلأَ اللهُ قلبَهُ رَجَاءً يومَ القيامةِ**» (الطبراني)، وكرامة أُخرى في قوله ﷺ: «**مَن كَظَمَ غيظًا وهو قادرٌ على أن يَنْفِذَه دعاه اللهُ عزَّ وجلَّ على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ حتى يُخَيِّرُه اللهُ مِن الحُورِ ما شاءَ**» (أبو داود).

حديث إضافي

قال النبيُّ ﷺ: «**مَنْ كَفَّ غضبَهُ كَفَّ اللهُ عنهُ عذابَهُ، ومَنْ خزنَ لسانَهُ سترَ اللهُ عَوْرَتَهُ، ومَنِ اعْتَذَرَ إلى اللهِ قَبِلَ اللهُ عُذْرَهُ**» (أبو يعلى).

❖❖❖

57 قال النبيُّ ﷺ: «**علِّموا أولادَكُمُ الصلاةَ إذا بلَغُوا سبعًا، واضربوهم عليها إذا بلغوا عشْرًا ، وفرِّقُوا بينهم في المضاجِعِ**» (رواه أحمد).

أردتُ أن أدخل من هذا الحديث إلى أمر مهم جدًا، وهو: شُبهة قسوة الإسلام في التعامل مع الأطفال، حيث يقول البعض أن ضرب الأبناء للصلاة خطأ تربوي، له آثاره السلبية، فهو – حسب كلامهم- يولد صراعات داخلية! وفيه كسر لكرامة الطفل!!

وهذا الكلام لا يقوله إلا من لا يعرف قدر رحمة الإسلام بالأطفال، واهتمامه بهم وبتربيتهم والعناية بهم جسميًا ونفسيًا، ويكفينا في ذلك قوله ﷺ: «**ليسَ منَّا من لم يرحَم صغيرَنا ويعرِفْ شرفَ كبيرِنا**» وفي رواية: «**منْ لمْ يرحمْ صغيرَنَا، ويعرفْ حقَّ كبيرِنَا، فليسَ منَّا**» (الترمذي).

وإن الإنسان لَيَعْجَبُ حقًا من رؤية مواقف رحمته ﷺ بالأطفال، بالنظر إلى حجم المسئوليات الملقاة على عاتقه، وهو يدير الدولة، ويقود الجيوش، ويحكم بين الناس، ويتفاوض مع الوفود، ويشرف على كل صغيرة وكبيرة في حياة المسلمين، ويتلقى الوحي من رب العالمين، ويوصله إلى كل من يستطيع، ويرسل الرسائل إلى ملوك العالم يدعوهم إلى الإسلام!! ويهتم كثيرًا -بل كثيرًا جدًا- بأطفال أمته، وما أبلغ قول أنس بن مالك واصفًا رحمته ﷺ بالأطفال إذ قال: "مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللهِ" (مسلم).

ولا ننسى أنه كان يعيش في بيئة لا يجدون فيها حقًا لصغير، بل ويعتبرون أن رحمة الصغير لون من ألوان الضعف غير مقبول، حتى يفتخر الرجل بأنه لا يرحم أبناءه! حيث يقول أحدهم: "إن لي عشرة من الولد ما قبَّلتُ منهم أحدًا"، فنظر إليه ﷺ وقال: «**وما أملِكُ لك أنْ نزَع اللهُ الرَّحمةَ مِن قلبِك... من لا يَرحم لا يُرحم**» (البخاري).

بل إنه ما كان يصبر على بكاء طفل ولا على ألمه، فكان يصلي وهو حامِل حفيدته (أُمَامَة) بنت زينب على كتفيه (متفق عليه).. لا يصبر على بكائها، فيحملها حتى في أثناء الصلاة!! بل كان ﷺ يقول: «**إِنِّي لأَدْخُلُ فِي الصَّلاةِ وَأَنَا أُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاتِي مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ**» (البخاري).

ولما كان يدخل المدينة أو القرية يتلقاه الصّبيان، تخيلوا هذا المشهد: قائد الدولة يدخل مدينته، وهو يركب دابته وقد حمل طفلاً وأردف آخر خلفه!! بل إنه عندما دخل مكة فاتحًا استُقْبِل أيضًا بالأطفال، فلم يمنعهُ الموقف المهيب، ولا الوضع العسكري الخطير، من أن يتلطف معهم ويلاعبهم! يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ مَكَّةَ اسْتَقبَلَتْهُ أُغَيلِمَةُ بَنِي عَبدِ المُطَّلِبِ فَحَمَلَ وَاحِدًا بَينَ يَدَيهِ وَآخَرَ خَلفَهُ!" (البخاري). هذه رحمته بالأطفال، والكلام عن هذا يطول جدًا، حتى أنه أُلِّفَت مؤلفات كاملة فيه.. فهل تظنون أن مَن هذا فِعله يأمُر بضرب الأطفال تعذيبًا لهم؟؟ هذا ليس من المنطق ولا المعقول، فإن الضرب هنا للتأديب، وليس هذا واجبًا؛ بل إن اضطر إليه بعد الترغيب لأربع سنوات، ويكون بحدود وضوابط، وبحيث يكون له أثر تربوي، وإلا فلا يجوز الضَّرب، فلا يجوز أن يضربهم ضرباً مبرحاً، ولا الضرب لغير حاجة، فالنبي ﷺ إنما أمر بضربهم لا لإيلامهم، ولكن لتأديبهم وتقويمهم.

أما من يتهمون الإسلام فأُحيلهم إلى الدِّراسات التي تقول: "أن مليون طفل سنويًا يتم استغلالهم في البِغاء والمواد والأنشطة الإباحية، ومنهم أجبروا أو اختطفوا أو استدرجوا، أو هم ضحايا الاتجار بالأطفال" (تعزيز حقوق الأطفال، ص:20)، وإن شئتم فاكتبوا على جوجل (إسرائيل والاتجار بالبشر) أو (إسرائيل وأيتام هاييتي) لتروا البعثة الطبية الإسرائيلية! إلى هاييتي في زلزال 2010، -حيث مكان العلاج والرحمة- كيف كانت تسرق الأطفال الأيتام وأعضاء الموتى والمصابين، وقد اعترفت اليونيسيف بتغطية أوروبا على الأحداث، وقالت ما ترجمته: "إن ضمير أوروبا غير نقي في هذا المجال"..

نعود إلى موضوعنا؛ فأنت أيها المسلم يجب أن تقتدي بالنبي ﷺ في التعامل مع الأطفال، بالرحمة واللطف وتوجيههم وتأديبهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وخاصة من يأتون إلى المساجد، حتى لو صدر منهم ما يُزعجك فتذكر أنهم في النهاية أطفال..

تطبيق عملي

عَنْ أُمِّ قَيْسٍ بِنْتِ مِحْصَنٍ، أَنَّهَا "أَتَت بِابنٍ لَهَا صَغِيرٍ، لَمْ يَأكُلِ الطَّعَامَ، إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَجْلَسَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَجْرِهِ، فَبَالَ عَلَى ثَوْبِهِ، فَدَعَا بِمَاءٍ، فَنَضَحَهُ وَلَمْ يَغْسِلْهُ".. فلم يُعَنِّفهُ ولم يضربه..

❖❖❖

58 قال النبيُّ ﷺ: «**إذا جاء الرجلُ يعودُ مريضًا فلْيقُلْ: اللهم اشْفِ عبدَكَ، يَنْكأُ لكَ عدُوًّا، أو يَمْشي لكَ إلى صلاةٍ**» (أخرجه أبو داود).

هذا الحديث النبوي يُعطينا فكرة عن تعامل النبي ﷺ مع المرضى، حيث كان يُعطيهم جُرعات من الأمل، فبعضُنا أيام الكورونا -لا أعاد الله تلك الأيام- كانوا يُعامِلون المريض وكأنه أجرب، أو كأنه (عامل جريمة)، وهذا يُخالف الهدي النبوي الذي يأمُرنا بمعالجة المرضى نفسيًا بالإضافة إلى العلاج المادي، فكان يدعو للمريض على مسامعه فيقول: «**اللهم اشْفِ عبدك؛ يَنْكأ لك عدوًّا، أو يَمْشي لك إلى الصّلاة**»، وكأنه يقول له: لا بأس، فسوف تشفى بإذن الله، وتُعطى قوة في جسدك وتذهب للجهاد في سبيل الله وتُقاتل الأعداء، وستذهب إلى الصلاة، وكان يسأل المريض عن شكواه، ويضع يده على جبهته أو صدره، ويدعو له، ويصف له ما ينفعه في عِلَّتِه.

بل في رواية للحديث فيها إضافة: «**أو يمشي لَكَ إلى جنازةٍ**» وكأنه يُبعد عنه التفكير في الموت وفي الأمور السيئة، ويقول: ستعيش وترى الكثير من الأحوال في حياتك، بل يُروى عنه ﷺ أنه كان يقول: «**إذا دخلْتم على مريضٍ، فنَفِّسوا له في أجَلِه؛ فإنّ ذلك لا يردُّ شيئًا، ويطيّب نفسه**» (الترمذي).. يعني: طمئنوه وارفعوا معنوياته وأخبروه أنه سيشفى، وفيه الدعاء له بطول العمر والصحة والقوة والنشاط.

وقد يحزن المريض على عباداته التي كان يقوم بها في صِحَّته، فكان ﷺ يُخبره أن الله سيكتب له أجر كل الأعمال التي كان يعملها في صحته، فيقول: «**إِذَا ابتَلَى اللهُ عز وجل العَبدَ المسلِمَ بِبلاءٍ في جَسَدِهِ ؛ قالَ اللهُ عز وجل لِلمَلَكِ: اكتُبْ لَهُ صَالِحَ عَمَلِهِ الَّذِي كَانَ يَعمَلُ ، وَإِن شَفَاهُ غَسَّلَهُ وَطَهَّرَهُ ، وَإِن قَبَضَهُ غَفَرَ لَهُ وَرَحِمَهُ**» (أحمد)، ويقول: «**إذَا مَرِضَ العَبْدُ، أوْ سَافَرَ، كُتِبَ له مِثْلُ ما كانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**» (البخاري)..

ثم إنه ﷺ -من رحمته- كان يُبشِّر المريض بالأجر والمثوبة التي تلحق به نتيجة المرض، فيهوِّن بذلك عليه الألم والحُزن، ويرضيه به، وكان يقول: «**لا بأس عليك، طهور إن شاء الله**» (البخاري) يعني: هذه مسألة بسيطة ومرض خفيف إن شاء الله سيُطهرك من

الذنوب وتخرج سالمًا مُعافى.. حيث تروى لنا صحابيّة اسمها أم العلاء؛ فتقول: "عادَني رسول الله ﷺ وأنا مريضة، فقال: «**أَبْشِرِي يَا أُمَّ الْعَلاءِ، فَإِنَّ مَرَضَ الْمُسْلِمِ يُذْهِبُ اللَّهُ بِهِ خَطَايَاهُ كَمَا تُذْهِبُ النَّارُ خَبَثَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**»" (أبو داود).

وكان ﷺ حريصًا على التخفيف على المريض، وعدم تعريضه للخطر، وكان يغضب إذا رأى من يتشدد في الأحكام مع مريض، فهذا رجلٌ أصابه حَجَرٌ فَجَرَحَ رأسه، فسأل أصحابه هل يجدوا له رخصة في التيمم؟ فقالوا: لا؛ وأنت تقدر على الماء، فاغتَسَلَ فمات؛ فلما علم ﷺ بذلك قال: «**قَتَلُوهُ؛ قَتَلَهُمْ اللهُ!! أَلا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؛ فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ -أَوْ يَعْصِبَ- عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ**» (أبو داود).

أما أدعياء الحضارة! والديمقراطية! والإنسانية! فقد رأيتم وسمعتم ماذا يفعلون بالمرضى، فقد جاء في تقارير منظمة اليونيسيف الدولية أنه من كل عشرة أطفال دون سن الخامسة كان يموت طفل عراقي بسبب نقص العلاج، وفي كل يوم من أيام الحصار الأمريكي كان يموت 250 مريض عراقي بسبب العقوبات التي كانت مفروضة عليها (اغتيال الإنسان العراقي: إسلام أونلاين).. ورأينا ماذا فعلوا بمرضى غزة حيث تُركوا حتى الموت في المستشفيات، أو ماتوا في طريق الهرب، حتى الخُدَّج حُرموا من الأكسجين والكهرباء فماتوا وتحللوا في حضاناتهم، وأيضًا: "إسرائيل استهدفت 65٪ من مؤسسات الصحة" (الجزيرة).. "، "350 ألف مريض مزمن لا يتلقون أدويتهم جراء الحرب الإسرائيلية المستمرة" (وكالة الأناضول).. "نحو 85 ألف مريض يمني دون سن الخامسة ماتوا بسبب سوء التغذية الحاد خلال ثلاث سنوات من الحرب" (BBC).. هل تُريدون أخبارًا أخرى؟؟!، فهل ننسى الحرب على المستشفيات، وقصف المستشفى المعمداني ومجمع الشفاء وغيرها، بما فيها ومن فيها؟؟

هكذا كان حبيبنا يتعامل مع المرضى، فهلا نقتدي به، ونُصلح هذه القلوب؟؟

❖❖❖

59 قال النبيُّ ﷺ: «**انْصُرْ أخاكَ ظالِمًا أوْ مَظْلُومًا**»، فقالَ رَجُلٌ: يا رَسولَ اللهِ، أنْصُرُهُ إذا كانَ مَظْلُومًا، أفَرَأَيْتَ إذا كانَ ظالِمًا، كيفَ أنْصُرُهُ؟ قالَ: «**تَحْجُزُهُ - أوْ تَمْنَعُهُ - مِنَ الظُّلْمِ؛ فإنَّ ذلكَ نَصْرُهُ**» (أخرجه البخاري).

لماذا اخترتُ هذا الحديث؟ وما علاقته بالمعامَلات؟

اخترته لأن بعض الناس يقتطع الجزء الأول منه «**انْصُرْ أخاكَ ظالِمًا أوْ مَظْلُومًا**» ليُشجعهم على حمية الجاهلية والعصبية المنتنة التي حاربها الرسول ﷺ، كما سبق في حديث رقم (51)، حتى صاغوا في الأمثال العامة: (أنا وأخوي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب)، وهذا المعنى بعيدٌ جدًا عن الصَّواب، وسيفهمون ذلك لو أنهم كلَّفوا أنفسهم وأكملوا الحديث النبوي إلى آخره.

هذا التفكير مَرَّ على عقل أحد الصحابة الذين سمعوا قول النبي ﷺ: «**انْصُرْ أخاكَ ظالِمًا أوْ مَظْلُومًا**»، فسأله: "يا رَسولَ اللهِ، أنْصُرُهُ إذا كانَ مَظْلُومًا"، فَنَصْرُ المظلومِ بأن تمنع عنه الظُّلم، وترفع عنه العُدوان، وتُزيل عنه تبعات ونتائج الظُّلم الذي تعرَّض له، فتُحاول أن تُعيد له حقَّه، وأن تواسيه إذا خَسِرَ شيئًا ما، أو تُعَوِّضه إن استطعت ذلك...

ويسأل الصحابي: "أفَرَأَيتَ إذا كانَ ظالِمًا، كيفَ أنْصُرُهُ؟" فقالَ ﷺ: «**تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ؛ فإنَّ ذلكَ نَصْرُهُ**».. فنصرنا للظالم يكون بمنعه عن الظُّلم، وبأخذ حق المظلوم منه، وأخذ الحقّ من الظالم يُعَدّ نصراً له، وعونًا ومُساعدة له؛ لأنك بهذا تمنعه من الولوج في غضب الله تعالى الذي حرَّم الظُّلم على نفسه وعلى الناس، وتمنعه من الوقوع في النار، بسبب ظلمه للآخرين، وتُخبره أنه يُورِدُ نفسَه إلى المهالك، فإذا كففته عن ظلمه فقد أردت به الخير، وهذا حق الصديق على صديقه، والأخ على أخيه، والأبناء على أبيهم.

دعونا نُلقي نظرة على روايات الحديث، وتمعنوا في قوله ﷺ: «**إنْ كانَ ظالِمًا فَلْيَنْهَهُ، فإنَّهُ لهُ نَصْرٌ وإنْ كانَ مَظْلُومًا فَلْيَنْصُرْهُ**» (مسلم)، وقوله: «**تَكُفُّهُ عَنِ الظُّلْمِ، فَذاكَ نَصْرُكَ إيَّاهُ**» (الترمذي)، ويقول موضِّحًا: «**أَعِن أخاكَ ظالمًا، أو مظلومًا، إن كان ظالمًا فأعن عليه حتى يُؤخَذ منهُ الحَقّ؛ فقد أعنته بذلك، وإن كان مَظلُومًا فأعِنهُ حتى**

يَأخُذ حَقَّه؛ فقد أعنته» (البزار)، ولاحظوا اللفظ: «**تَرُدُّهُ عَنِ الظُّلْم**» (الطبراني)، فإذا أردنا أن نُحسِن إلى إنسان وأن ننصره حقًّا فيجب أن نمنعه من الظُلم؛ لأن الإنسان الذي عصى الله فَظَلَمَ الناس يكون ظالمًا لنفسه، وَكُل من تعدى على حدود الله فهو ظالم لنفسه، ويجب منعه من ظلم نفسه وظُلم الناس، وإلا فإن العقوبة تطال الجميع إذا جاءت، قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ (الأنفال:25)، أي: إذا لم تستجيبوا لله والرسول فإن العذاب ينزل بكم، ثم لم يقتصر على الظالمين خاصة، بل تتعدى إليكم جميعًا وتصل إلى الصالح والطالح، وكذا يقول ﷺ: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ**» (أحمد)، وفي رواية: «**ما من قومٍ يُعمَلُ فيهم بالمعاصي، ثمَّ يقدِرون على أن يُغيِّروا، ثمَّ لا يُغيِّروا إلا يوشِكُ أن يعُمَّهم اللهُ منه بعقابٍ**» (أبو داود).

وكم من معاملاتٍ نراها أمام أعيُننا فيها من الظُّلم ما فيها، وفيها من أكل الحقوق ما فيها، وفيها من طمس الحقائق والكذب ما فيها، وفيها من تزوير الأوراق ما فيها... وقد نَغُضُّ عنها الطرف، وكأننا لم نَرَ ولم نسمع شيئًا.. وهذا من أسباب العقاب والعذاب للأمة كُلِّها..

وبعدُ؛ -أيها الكرام- إن نَصرَنَا للمظلوم بأخذ حقه له، ونصرنا للظالم بمنعه عن الظُّلم من الصفات التي خفتت عند الكثير منا مع الأسف، ولو ضيعنا هذا الحق لغرقت سفينة المجتمع، واستشرت المنكرات.كما قال النبي ﷺ: «**مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قومٍ استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فلو تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعاً، ولو أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً**»، فهذا هو الفرق بين دعوى الجاهلية التي تنصر على الباطل ، وبين الإسلام الذي يرى أن كف الظالم عن ظلمه هو النصر له.

❖❖❖

60 قال النبيُّ ﷺ: «**منكم مَن يكونُ سَريعَ الغضَبِ، سَريعَ الفَيءِ، وإحداهما بالأُخرى، ومنكم مَن يكونُ بَطيءَ الغضَبِ بَطيءَ الفَيءِ، فإحداهما بالأُخرى، وخيارُكم مَن يكونُ بَطيءَ الغضَبِ سَريعَ الفَيءِ وشِرارُكم مَن يكونُ سَريعَ الغضَبِ بَطيءَ الفَيءِ**» (رواه الترمذي).

في هذا الحديث يُقَسِّم النبي ﷺ الناس في مُعاملاتهم إلى أقسام أربعة:

الأول: «**بطيء الغضب**» عنده قُدرة عالية على احتمال الأذى والصبر والحِلم، فلا يغضب بسرعة، «**سريع الفَيء**» وهو أيضًا سريع الرجوع إلى حالة الهدوء، وهذا أفضلهم.

الثاني: «**سريع الغضب سريع الفيء**» لا يتحمل أي كلمة أو تَصَرُّف من الآخرين، لكنه سريع الرضا، وهذه صفة طيبة، وقوله ﷺ: «**وإحداهما بالأُخرى**» يعني: هذه بهذه، فإحدى فالصفة السيئة تُقابل الصفة الحسنة، فلا يستحق مدحاً ولا ذماً.

الثالث: «**بَطِيء الغضب بطيء الفيء**» وبُطء الغضب خُلُقٌ محمودٌ، يدل على الحلم والصبر، لكن بُطء الفيء مذموم، يدل على الحقد وعدم التسامح، فهذه بهذه.

أما القسم الرابع: «**سريع الغضب**» فلا يتحمل أي كلمة أو تَصَرُّف من الآخرين، فيغضب ويعمل قصة لها أول وما لها آخر على أتفه الأسباب، ثم هو: «**بطيء الفيء**» لا يرضى ولا يهدأ بسرعة، وهذا أسوؤهم؛ لأنه جمع الصفتين السيئتين معاً، كان الله في عَون من تُلجئه الضرورة إلى معاشرة هذا القسم من الناس.

لكن؛ صفة سرعة الغضب وبُطء الرِّضا مثلها مثل كثير من الأخلاق الذميمة كالشُّح والعَجَلَة وقلة الصبر، يُمكن للإنسان أن يُهذبها وَيُقَوِّمها ويُصححها ويُلغيها من حياته، إذا هو عَزَم على ذلك، لهذا بيَّن النبي ﷺ إمكانية ذلك في قوله: «**إِنَّما العلمُ بِالتَّعَلُّمِ، وإِنَّما الحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، ومَنْ يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَهُ، ومَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ**» (الطبراني)..

خُذوا هذه القصة: "جاءَ نَاسٌ وسَأَلُوا رَسولَ اللهِ ﷺ (أي طلبوا منه مالاً وأشياءً) فأعطَاهُم، ثُمَّ سَأَلُوهُ فأعطَاهُم، حتَّى نَفِدَ ما عِندَهُ، فَقَالَ: «**ما يَكونُ عِندِي مِن خَيْرٍ فَلَنْ**

أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ»، ثم أراد أن يُعلمهم الاعتماد على النفس، وعدم الطلب من الآخرين، فقال لهم: «**ومَن يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ**» فمن يُدرِّب نفسه على عدم بذل ماء وجهه في الطلب من الناس فإن الله يصون وجهه من الإحراج والذُل أمامهم، «**ومَن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ**» من يُدَرِّب نفسه على الاستغناء عن الناس فإن الله يرزُقُهُ ويُغنيه عنهم، وفي الحديث: «**ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ**» (ابن ماجه).

ثم قال: «**ومَن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وما أُعْطِيَ أحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**» أي من يُدرِّب نفسه على الصب وتحمل الأذى فإن الله تعالى يُكرمه ويرزقه الصبر، فإن الصبر أفضل عطاء يحصل عليه الإنسان؛ لأنه يُعينه ويُفيده في كل حياته.

خُلاصة الكلام: أن الإنسان يُمكن أن يُغيِّر من صفاته السيئة، والتي لا تنفعه في حياته، بل تَضُره، ويتعرَّض بسببها إلى اللوم والإحراج وقد يصل إلى الإثم، فالمسلم الصادق يعزم ويُحاول التخلص من كل أمراض القلوب التي أصبحت عبئًا ثقيلاً على قلبه وروحه ونفسه، كالطمع وحُب الدنيا والحسد، ويتدرَّب على التخلص من عُيوبه، فإذا رأى اللهُ تعالى فيك العزم والصدق والإرادة لإزالة هذه الصفات؛ فإنه يفتح أمامك الطريق، ويُصلح بالك في الدنيا، ويُطهر قلبك في الآخرة؛ لتلقاه بقلب سليم: ﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ** (88) **إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** (89)﴾ (الشُعراء)..

لذلك عليك التوجه بقلب صادق وخاشع لله -عز وجل- أن يزيل عنك هذه الصفات، ويطفيء عنك هذه النار المحرقة، فالمؤمن ينشغل بإصلاح نفسه، فإن الله هو المعطي والمانع -جل علا-، فلا تُعَلِّق قلبك بمخلوق، فـ

لن يقدر العبد أن يعطيك خردلةً *** إلا بـإذن الذي سـواك مـن طينِ

كان هذا آخر حديث في هذه الباقة التي قطفناها من حديقة الهداية النبوية، لعل الله تعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، اللَّهُمَّ أَرِنا الحق حقاً وارزقنا اتِّباعَهُ، وأرِنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعلنا يا ربنا ممن قُلتَ فيهم: ﴿**الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾.. اللَّهُمَّ آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الـمحتويات

مقدمة 5
تمهيد. 7
الحديث الأول: أصلح نيتك تُقبَل أعمالُك.. 9
الحديث الثاني: كن سَمْحًا؛ يرحمك الله. 10
الحديث الثالث: إياكَ واليمين !! 12
الحديث الرابع: لا تمحق بركة ربحك... 14
الحديث الخامس: اختبر قوة إيمانك.. 15
الحديث السادس: المنَّان.. 16
الحديث السابع: سيف الحياء... 17
الحديث الثامن: لا تقتحم نار جهنم... 19
الحديث التاسع: قول و شهادة الزور.. 20
الحديث العاشر: من حَقَ الجيرة.. 22
الحديث الحادي عشر: اهتم بأحبابك.. 24
الحديث الثاني عشر: احذر أهل الفتنة والتخبيب. 26
الحديث الثالث عشر: الرسائل الإيجابية.. 28
الحديث الرابع عشر: معالجة أخطاء المخطئين.. 29
الحديث الخامس عشر: الفجور يؤدي إلى النار. 31
الحديث السادس عشر: إلا ما تملك. 32
الحديث السابع عشر: حتى يبدو صلاحها.. 33
الحديث الثامن عشر: مواساة وطَمأنة.. 35
الحديث التاسع عشر: (خُذْ جَمَلَكَ وَلَكَ ثَمَنُهُ)... 37
الحديث العشرون: جُبّ الغيبة عن نفسك.. 39
الحديث الحادي العشرون: الحِلمُ سيِّد الأخلاق.. 41
الحديث الثاني والعشرون: الابتسامة، مفتاح القوب وسُنَّة نبوية.. 43
الحديث الثالث العشرون: العمل التطوعي.. سُنة نبوية.. 45
الحديث الرابع والعشرون: احفظ حقوقك من الضياع.. 47
الحديث الخامس والعشرون: المسلمون على شروطهم، إلا... 49
الحديث السادس والعشرون: التجارة مهمة، لكن !! 51
الحديث السابع والعشرون: في ظِلّ عرش الرحمن ! 53
الحديث الثامن والعشرون: نيّة صادقة تُساوي كفالة ربَّنية. 55

الحديث التاسع والعشرون: الرَّهن.. 56
الحديث الثلاثون: فتبيَّنوا.. 58
الحديث الحادي والثلاثون: التمس لأخيك عُذرًا.. 60
الحديث الثاني والثلاثون: حتى مع المخالفين.. 62
الحديث الثالث والثلاثون: زِن وأرجح... 64
الحديث الرابع والثلاثون: مفتاح التوفيق والنجاح.. 66
الحديث الخامس والثلاثون: من صفات اليهود.. 68
الحديث السادس والثلاثون: فقد تُودِّعَ منهم.. 70
الحديث السابع والثلاثون: كُن قويًا.. 72
الحديث الثامن والثلاثون: اكسب جائزة عظيمة... 74
الحديث التاسع والثلاثون: أجيبوا الداعي.. 76
الحديث الأربعون: ولا تردّوا الهدية.. 78
الحديث الواحد والأربعون: ولا تضربوا المسلمين.. 80
الحديث الثاني والأربعون: المتزاورون.. 82
الحديث الثالث والأربعون: مُنَفِّرين.. 84
الحديث الرابع والأربعون: ابدأ ببيتك.. 86
الحديث الخامس والأربعون: كن قُدوة حسنة.. 88
الحديث السادس والأربعون: أدنى الحِيَل... 90
الحديث السابع والأربعون: من أهم الأمانات.. 92
الحديث الثامن والأربعون: مع التَّجسُّس مَرةً أخرى.. 94
الحديث التاسع والأربعون: ثلاثة أسباب... 96
الحديث الخمسون: (لا يفرك مؤمنٌ مؤمنةً).. 98
الحديث الواحد والخمسون: دعوى الجاهلية.. 100
الحديث الثاني والخمسون: كما تدينُ تُدان.. 102
الحديث الثالث والخمسون: أكبر سرقة في الدنيا... 104
الحديث الرابع والخمسون: حتى أحباب الأحباب.. 106
الحديث الخامس والخمسون: قَبلَ أن يَجِفَّ عَرَقَه.. 108
الحديث السادس والخمسون: قويّ وأقوى.. 110
الحديث السابع والخمسون: مع الأطفال.. 112
الحديث الثامن والخمسون: مع المرضى.. 114
الحديث التاسع والخمسون: ظالمًا أو مظلومًا.. 116
الحديث الستون: غيِّر وبَدِّل.. 118